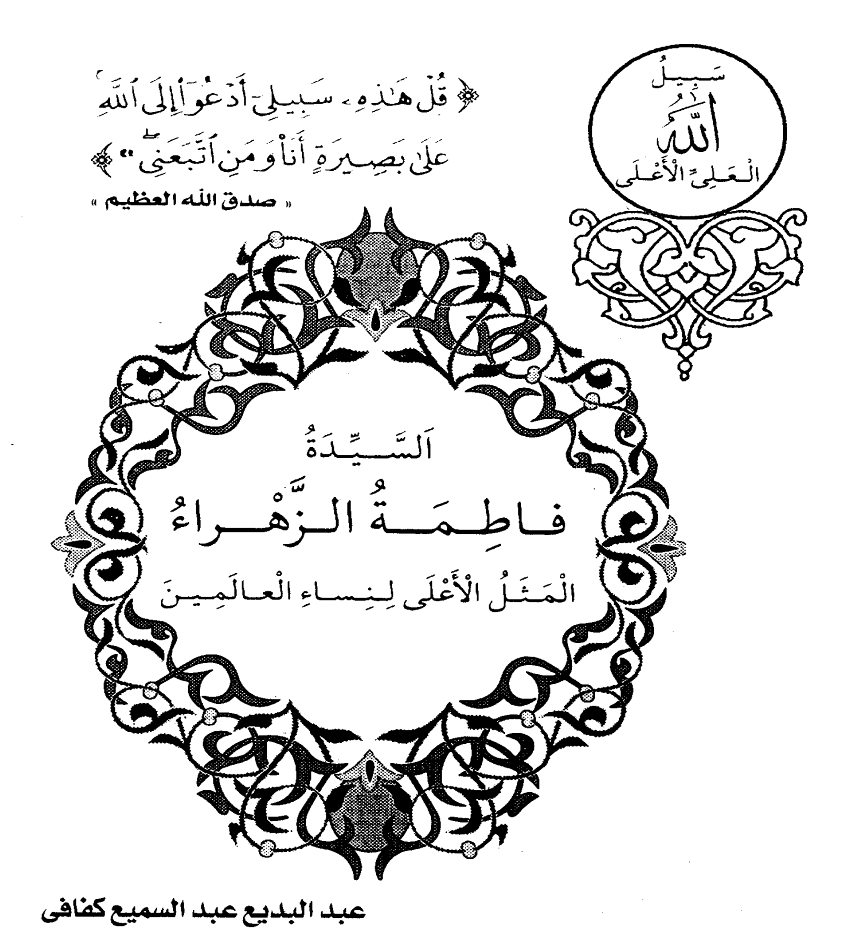


سبيل الله العلي الأعلى

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾

« صدق الله العظيم »

اَلسَّـيِّـدَةُ فَـاطِـمَـةُ الـزَّهْـراءُ

الْمَـثَـلُ الأَعْلَى لِـنِـسـاءِ الْعـالَـمِـيـنَ

عبد البديع عبد السميع كفافى

﴿ اَلْإِهْــــداءُ ﴾

إِلَـيْـكَ ، يـا سَـيِّـدِى يـا رَسُــولَ اللهِ !!!

أُهْـدِى إِلَـيْـكَ ...

هٰـذِهِ الْـكَـلِـمـاتِ الْـقَـلِـيـلَـةِ فِى سِـيـرَتِـكُـمْ :

سِـيـرَةِ سَـيِّـدَتِى الـزَّهْـراءِ :

سَـيِّـدَةِ نِـسـاءِ الْـعـالَـمِـيـنَ ...

* * *

وَلَـمَّـا كـانَـتْ هٰـذِهِ الْـكَـلِـمـاتُ مِـنْ فَـيْـضِ جُـودِكُـمْ ؛

فَـهِـىَ بِـضاعَـتُـكُـمْ : رُدَّتْ إِلَـيْـكُـمْ .

أَمُـدُّ يَـدِى - لَـكُـمْ - بِـهـا ...

فـاقْـبَـلْـهـا - يـا سَـيِّـدِى ، يـا رَسُـولَ اللهِ -

يَـسْـعَـدْ بِـهـا قَـلْـبِـى ، وَيَـفْـرَحْ - بِـقَـبُـولِـكُـمْ - فُـؤادِى ..

لَـعَـلَّ اللهَ يُـصْـلِـحُ - بِـهٰـذا الْـقَـبُـولِ - حـالِـى ! ..

* * *

وَالصَّــلاةُ وَالسَّــلامُ عَـلَـيْـكَ ،

يـا سَـيِّـدِى ، يـا رَسُـولَ اللهِ ..

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اَلْمُقَدِّمَةُ ﴾

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ،
وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ ،
وَخاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَقائِدِ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ ،
والْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ : سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ
النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقُرَشِيِّ الْهاشِمِيِّ الصَّادِقِ الْوَعْدِ الأَمِينِ ،
وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحابِهِ الْمَيامِينِ ، وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ
الطَّاهِرِينَ ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

أَمَّا بَعْدُ .. سَيِّدِى ، يا رَسُولَ **اللهِ** ! !
اَلصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ الْكِرامِ ..
إِنَّنِى مُحِبٌّ ، أَقِفُ عَلَى بابِكَ خاشِعًا مُتَذَلِّلًا ،
لِتَأْذَنَ لِى بِأَمْرٍ تَطاوَلَتْ إِلَيْهِ نَفْسِى ، واجْتَمَعَتْ
عَلَيْهِ عَزِيمَتِى ، وَحَنَّ لَهُ قَلْبِى - وَهُوَ أَنْ
أَكْتُبَ عَنْ رَيْحانَتِكَ مِنَ الدُّنْيا : « أُمِّ أَبِيها » ،
كَما تُحِبُّ أَنْ تُنادِيها ، سَيِّدَتِى : فاطِمَةَ الزَّهْراءِ ،
عَلَيْكَ وَعَلَيْها وَعَلَى كُلِّ أَهْلِ الْبَيْتِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ .
أَتَأْذَنُ لِى يا سَيِّدِى ، يا رَسُولَ **اللهِ** ؟ !

إنِّى أَعْلَمُ أَنَّ هٰذا تَطاوُلٌ مِنِّى ، وَلٰكِنَّ عُذْرِى فِى ذٰلِكَ
هُوَ: هٰذا الْوَجِيبُ لِقَلْبِى ، الَّذِى مَنَّ اللّٰهُ بِهِ عَلَىَّ ،
حُبًّا لَهُ السُّلْطانُ الْقَوِىُّ عَلَيْهِ فَغَلَبَهُ ، فَتَفَتَّحَتْ فِيهِ
زُهُورُ مَحَبَّتِكُمْ ، فَأَرْسَلَتْ هٰذا الْعَبِيرَ فِى صَدْرِى ،
فَفاضَتْ رائِحَتُهُ عَلَى الْقَلَمِ ، فَكَتَبَ ! ..
فَهَلْ مِنْ سَماحٍ يَطِيبُ بِهِ خاطِرِى ، وَتَسْتَضِىءُ بِهِ حَياتِى ،
وَيَنْشَرِحُ بِهِ صَدْرِى ، وَيَنْطَلِقُ بِهِ لِسانِى ،
وَيَجْرِى بِهِ قَلَمِى عَلَى هٰذِهِ الصَّفَحاتِ ؟ ! ..
وَأَنْتَ - يا سَيِّدِى ، يا رَسُولَ اللّٰهِ - كَرِيمٌ ،
وَسَمَّاكَ اللّٰهُ : « الرَّءُوفَ الرَّحِيمَ » !! ..
أَرْجُوكَ : وَالَّذِى يَرْجُوكَ فِى خَيْرٍ يَنالُهُ ، وَبِهٰذا الْخَيْرِ
يَسْعَدُ !!! وَبِكُما تَطِيبُ حَياتُهُ وَيَطِيبُ مَماتُهُ ،
وَيَطِيبُ لَحْدُهُ ، وَيَطِيبُ بَعْثُهُ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
لِرَبِّ الْعالَمِينَ !! يا شَفِيعَنا يَوْمَ الدِّينِ !!! .
* وَأَنْتَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .. يا إِمامَ الْمُتَّقِينَ !!
يا خَلِيفَةَ سَيِّدِنا رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ وَبابَ مَدِينَةِ عِلْمِهِ ..
يا سَيِّدَنا عَلِيًّا ! ! .. هَلْ تَأْذَنُ لِى بِذٰلِكَ ؟ !!

فَإِنِّى قَدْ وَجَدْتُ فِيكُمْ شَمائِلَ نَهَلْتُ مِنْها ؛
فارْتَوَتْ رُوحِى ، وَغُذِّىَ قَلْبِى ، وَزادَتْ قُوَّتِى ،
واسْتَضاءَ بَصَرِى ، واسْتَنارَتْ بَصِيرَتِى ،
وَزادَ إِيمانِى ، وَرَشُدَ عَقْلِى ، وَمَلأَ الْيَقِينُ فُؤادِى ! ..
وَفَرِحْتُ - بِذٰلِكَ كُلِّهِ - فَرَحًا أَضاءَ الدُّنْيا أَمامِى
بِأَنْوارِ الْحَقِّ : فازْدَهَرَ عُودِى ، وَتَفَجَّرَتْ أَضْواءُ
التَّفاؤُلِ فِى كِيانِى ، وَثَرَّتْ يَنابِيعُ الْحِكْمَةِ
عَلَى لِسانِى ، فَنَطَقَ الآيَةَ الْكَرِيمَةَ :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأحزاب)

وَعَلِمْتُ بَعْضَ الأَسْبابِ الَّتِى مَنَحَكُمُ اللهُ - مِنْ أَجْلِها -
مَقامَ الشَّهادَةِ فِى آيَةِ الْمُباهَلَةِ ، وَهِىَ : فِى سُورَةِ آلِ عِمْرانَ :

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ
أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

وَحَسِبْتُ مِنْها أَنَّ اللهَ قَدْ صَنَعَكُمْ لِنَفْسِهِ ، وَأَعَدَّكُمْ لِلإِسْلامِ
إِعْدادًا خاصًّا ، تَمَيَّزْتُمْ بِهِ عَلَى غَيْرِكُمْ مِنَ النَّاسِ ! ..

وَلَمَّا كُنْتُ أَحْبَبْتُ هٰذا الْعَطاءَ لِنَفْسِى ،
وَقَدْ ثَبَتَ عِنْدِى حَدِيثُ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ :
« لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ ، حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ :
ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ . »
فَإِنَّنِى دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُمَكِّنَنِى أَنْ أَغْتَرِفَ
لإِخْوانِى وَأَخَواتِى مِنْ ماءِ نَهْرِكُمُ الْعَذْبِ :
ما يَرْوِى غُلَّتَهُمْ ، وَمِنْ رِضابِ مَحَبَّتِكُمْ :
ما يَتَغَذَّوْنَ بِهِ ؛ فَيَسْعَدُونَ وَيَفْرَحُونَ ! . .
وَأَنْتَ أَيُّها الإِمامُ الْجَلِيلُ ، قالَ فِيكَ سَيِّدُنا
رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فِيما رواهُ التِّرْمِذِىُّ :
« أَنْتَ مِنِّى : بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَى ؛
وَلٰكِنْ لا نَبِىَّ بَعْدِى . » ،
فَأْذَنْ لِى بِما عَزَمْتُ عَلَيْهِ ، مِنْ خَيْرٍ أَرَدْتُهُ ! . .

* وَأَمَّا أَنْتِ ، يا زَهْراءَ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ
- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَيْحانَتَهُ مِنَ الدُّنْيا !!!
يا مَنْ كانَ يُنادِيكِ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ -
بِنِداءٍ خَصَّكِ بِهِ : (يا أُمَّ أَبِيها » ! . .)
فَإِنَّ عُذْرِى الَّذِى أَضَعُهُ بَيْنَ يَدَيْكِ :

هُوَ حُبٌّ مَلأَ عَلَيَّ قَلْبِى ، وَشَغَلَ كِيانِى لَكُمْ ؛
وَلأَوْلادِكِ - مِنَ الْبَنِينَ وَالْبَناتِ -
يا أُمَّ الْحَسَنَيْنِ ، ويا أُمَّ الدُّرَّتَيْنِ الْغالِيَتَيْنِ ،
والْجَوْهَرَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ : زَيْنَبَ وَأُمِّ كُلْثُومٍ ! ..
فَأْذَنِى لِى .. وَفِى إِذْنِكِ الْبَرَكَةُ وَالْخَيْرُ لِى
- وَلِمَنْ أَرَدْتُ أَنْ أُخاطِبَهُمْ مِنْ إِخْوانِى وَأَخَواتِى -
فِى هٰذا الزَّمانِ الَّذِى تَرَبَّعَتْ فِيهِ الدُّنْيا
فِى بَعْضِ الْقُلُوبِ ، فَجَفَّتْ فِيها يَنابِيعُ الْمَحَبَّةِ ! ..
فَلَعَلَّ اللهَ - سُبْحانَهُ وَتَعالَى - بِبَرَكاتِكُمْ :
يُعِيدُ إِلَيْها ما فَقَدَتْهُ مِنْ حُبٍّ فِى اللهِ - تَبارَكَ وَتَعالَى -
وَحُبٍّ فِى سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَحُبٍّ لَكُمْ :
يا أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ . عَلَيْهِ وَعَلَيْكُمْ صَلَواتٌ مِنَ اللهِ وَسَلامٌ .

وَأَمَّا أَنْتُمْ - يا إِخْوَتِى فِى اللهِ ، وَيا أَخَواتِى فِى اللهِ -
هٰذا بَعْضُ الْعَسَلِ الْمُصَفَّى مِنْ سِيرَةِ فاطِمَةَ الزَّهْراءِ ؛
فَأَقْبِلُوا ، لِتَتَغَذَّى أَرْواحُكُمْ ، وَتَفْرَحَ قُلُوبُكُمْ بِالسَّعادَةِ
فِى الدُّنْيا والآخِرَةِ .. والْمَوْعِدُ : اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى !.
وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ ، وَمِنْهُ الْعَوْنُ ، وَعَلَيْهِ التُّكْلانُ .

اَلْـمَـوْلِـدُ الـشَّـرِيـفُ :

فِى يَـوْمٍ اَبْـتَـسَـمَ فِـيـهِ الـزَّمـانُ ،
وَفَـرِحَ فِـيـهِ الْـمَـكانُ ، وَسَـعِـدَ بِـهِ الـثَّـقَـلانِ ،
كانَ مِـيـلادُ سَـيِّـدَةِ نِـسـاءِ الْـعـالَـمِـيـنَ ،
وَسَـيِّـدَةِ رِجـالِ الْـعـالَـمِـيـنَ : فـاطِـمَـةَ الـزَّهْـراءِ ،
بِـنْـتِ أَشْـرَفِ الْـخَـلْـقِ ، سَـيِّـدِنـا مُـحَـمَّـدٍ :
نَـبِـىِّ اللهِ ، وَرَسُـولِ اللهِ ، وَحَـبِـيـبِ اللهِ . .
صَـلَّى اللهُ عَـلَـيْـهِ وَعَـلَـى آلِـهِ وصَـحْـبِـهِ وسَـلَّـمَ

الـزَّمـانُ :

يوم الجمعة وهو اليوم العشرون من شهر جمادى الآخرة قبل بعثة سيدنا رسول الله ﷺ بخمس سنوات ، والطريف أن ميلادها وميلاد والدها العظيم لهما صلة بالكعبة . ذلك أنه عليه الصلاة والسلام ، ولد في عام الفيل الذي حفظ الله فيه بيته (الكعبة) من تهديد أبرهة بهدمها ، فكان ميلاده صاحب صلة بنجاة الكعبة من الهدم ، وأما ميلاد سيدتنا فاطمة الزهراء ، فقد شهد اجتماع قلوب قريش وأيديها ، على إعادة بناء هذه الكعبة ، ووضع الحجر الأسود في مكانه بِيَدَىْ والدها العظيم سيدنا رسول الله ﷺ ، وهو ما كان بركة ينعمُ بها الناس إلى الأبد ، وهو فضل من الله عظيم !

الْـمَـكَـانُ :

ولدت سيدتنا الزهراء في دار أمِّها وأم المؤمنين خديجة بنت خويلد . وجاء وصفها فى كتاب (رحلة البتانونى ص٥٣) ونقله عنه الدكتور محمد عبده يماني في كتابه الأغرّ « إنها فاطمة الزهراء » نشر وتوزيع « دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدّة » بتفصيل نجمله في كلمات ، - دون خلل - حيث ظهر أن هذه الدار لها ثلاثة أبواب : منها : باب لحجرة مهيّأة لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعبادته وتلقي فيها الوحى .

والثانى : فى مُواجهة الداخل ، يفتح على مكان سكنه والسيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها .

والباب الثالث : غرفة مستقلة ، هى التى ولدت فيها سيدتنا فاطمة الزهراء - رضى الله عنها وأرضاها - حيث شهدت أول شعاع لشمس مولدها الشريف !..

هذه هى البيئة المادية التى ولدت فيها الزهراء .. أما البيئة المعنوية والروحية : فهى التكامل الأخلاقى الذى اجتمع لوالديها : سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمها وأم المؤمنين : خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وأرضاها .

فأما أبوها فهو أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم . ويكفي ذكر اسمه أمام أى إنسان ، فيمتلئ قلبه بأسمى المعانى ، ويسطع عقله بالإعجاب بكنز الحكمة وفصل الخطاب فى جوانب شخصيته العظيمة !.

ويكفي في ذلك أن نشير إلى أنه في يوم ميلاد الزهراء رضي الله عنها لم يكن قد تلقى بُشرى الرسالة الصريحة بعدُ . وكان يعرف بصفات الأنبياء والمرسلين مجتمعة فى الصدق والأمانة ، فاشتهر فى قومه قريش بالصادق الأمين . فإذا سمع مجتمع مكة المكرّمة أحداً يتحدث عن الصادق الأمين ، عرفوا أنه يقصد محمداً بن عبد الله ، ولا يقصد أحداً غيره !.. وهذا هو التفوّق الأخلاقى الّذى حازه والدها ، ولم يحُزْ أحد سواه على هذه الدرجة ، وهاتان الصفتان تتجليان فى سلوكه على صفحة التكامل الأخلاقى الذي طواه فى إهابه الشريف ، هذا التكامل الذى تغنى به مجتمع قريش ، وأفاضوا فى مدحه والفخر به ، والذى شعّت أنواره على قلب الإمام الجليل الشيخ محمد أبو زهرة وعقله ، ففاض عبيراً من قلمه على الصفحة ١٨١ من كتاب « خاتم النبيين » الجزء الأول طبعة دار الفكر :

(اَلتَّكامُلُ الإِنْسانِيُّ فِى مُحَمَّدٍ :
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ)
« رِسالَتُهُ : دَعْوَةٌ إِلَى الْكَمالِ ،
فَهُوَ الْكَمالُ الْمُطْلَقُ فِى التَّكْوِينِ الْبَشَرِيِّ ! »

ولقد سعدت سيدتنا فاطمة بحبّ عظيم ، ملأ رحيقه قلب سيدنا رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ فأشربت هذا مذوباً فيه كلّ مكارم الأخلاق ، فتناولتها قطرة قطرة ، فغذّت رُوحها ، وتغلغلت فى أعماقها ،

وهي في مرحلة التكوين الخلقي ، فما إن بلغت الخامسة من عمرها ، حتى ظهرت على جوارحها أضواء السلوك الحسن والأخلاق النبيلة ، وما بعد البعثة النبوية الشريفة تكثَّف عليها العطاءُ المحمديّ من دين وأخلاق وإيمان !..

وسيدنا رسول الله ﷺ يُوالي تغذية رُوحِها قبل تغذية جسدها وبعده ، فإذا علمنا ـ علماً يقيناً ، من كتب السيرة النبوية ، وكتب الحديث ـ أن سيدنا رسول الله ﷺ كان يُمْسك الحصا بيده الشريفة ، فيُسبح الحَصا بحمد الله ، ويسمعه الناس ، وأن المنبر الذي كان يخطب فوقه ، وتركه إلى منبر آخر وهذا قد ورد في أُمَّهات الكتب الإسلامية أخباره ـ : قد حنّ لفراقه ؛ فلنتوقع لسيدتنا الزهراء ـ رضى الله عنها وأرضاها ـ في كلّ مرة يحملها أبوها ﷺ على يديه الشريفتين ، ومع كل قُبلة يطبعها على جبينها الأغرّ ، وفي كلّ لمسة يلمسها بأصابعه الحانية ، أن يسكب في وجدانها العلم والحكمة ، ويتغذى قلبها بالحنانِ والرحمة ، والإيمان والمشاعر الجميلة ، وعقلها بالرشد والمعرفة ..

ولا عجب أن تكون في سن ست سنوات ،

ولكن يكون لديها حكمة الناضجات الراشدات ،

وإيمان الصِّدِّيقات الصالحات .

أُمُّـها .. وهى أُمُّ المُـؤمـنـين : خَدِيجَـةُ ، رضِىَ اللهُ عـنـها :

إن مـن يقـرأ كلمـات هــذه السيدة الطـاهرة الذكيـة أم الـمـؤمنين ، خـديجـة الكبـرى ، عندمـا أخبـرها زوجـهـا : أشـرف الخـلق سـيدنا مـحـمـد ـ صـلى الله عليـه وسـلم ـ خبر الوحى ، وتلقِّيه القرآن ـ مجموعة معانيه فى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة العَلَق)

وَقَالَ لَهَا ﷺ : « زَمِّلُونِى .. زَمِّلُونِى » .

فَفَاتَحَتْهُ بِهٰذِه الْكَلِمَاتِ :

(وَاللهِ ، لَنْ يُخْزِيَكَ اللهُ أَبَدًا ! ..

إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ..

وَتُقْرِى الضَّيْفَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ ،

وَتُعِينُ عَلَى نَوائِبِ الدَّهْرِ ! ..)

إن مـن يقـرأ هــذه الكــلمـات ، يُدرك مـا تتمـتّـع بـه هذه السـيدة الجليلة من فطرة مُتوقِّدة وضّـاءة : فاضت منهـا هـذه الكلمات مُتدفِّقـة ، ترسُم الحقيقةَ بحـروفٍ مـن نـور !

وهـذه الفطـرة هي مـا ورثته الزهراء من أُمِّهـا الرّءوم : خديجة ـ رضى الله عنها وأرضاها ـ وهي كنز حازته في شخصها ، وثريت بـه شخصيتها ، ونبعت منـه أخلاقها ، وصدرت عنـه حكمتها ، وضـاءت منـه عبـارتُـهـا ، واسـتـمـدّت منـــه فـصـــاحـتـهـا ، وتغـذّت بـه رُوحُـهـا . . فـسـعـدت بـه وأسـعـدت من حـولـهـا ، وعـرفت كـيف تُـهـديه كلّـه لأبيـهـا أشـرف الـخـلـق : سـيـدنا محمـد ، عليه ـ وآلـه وصحبـه ـ أفضلُ الصلاة وأزكى السـلام .

فلما امتزجت هذه الفطرة السليمة الوضّاءة بأنوار الوحى الشـريف ، والتي غشـيت البيت ومـن فيـه ومـا فيـه ، وآيات القرآن الكريم والذكـر الحكيم تسْطع على قلب والدهـا العظيم أشرف الخلق سـيدنا محـمـد ﷺ : ازدادت أضـواء هـذه الفطـرة السليـمة ، فـتكشفت أمام سـيدتنا الزهـراء الحقـيقة الأزليّة الأبدية ، فرأت جميع الأشياء على حقيقتها ، وحكمت عليها بالحكم الربـاني ، فـاسـتـسـلمت لله العلىّ القـدير ، وعـرفت فلزمت ، وآمنت فثبتت ، فلما ثبتت ارتوت ، فلمـا ارتوت نبتت ، فلمـا نبتت أزهرت ، فلمـا أزهرت أثمرت ، فكانت الزهـراء بنت أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ وزوجُ الإمام علىّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ورضى الله عنه ـ وأم الإمامين الجليـلين والسيدين الطاهرين : الحسـن والحسين ، وأم السـيدة الجليلة الطاهرة : زينب ، عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، ورحمته ورضوانه .

أجدادُها الْكِرام :

وأقرب جدّ لها لأبيها هو السيد / عبد الله بن عبد المُطّلب : وقد كان يكفي ذكر اسمه فقط جداً لصاحبة السيرة ، ولكن الشوق يتوقد فى القلب ؛ لأن نسرُدَ بعض صفاته ، ونُزيح السِّتارة التاريخية عن بعض الأشعة من معدنه النّضاريّ العسجديّ ، فهو والد سيدنا رسول الله - صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم - وهو الجدّ القريب لفاطمة البتول : رضى الله عنها وأرضاها .

أُنظر معى - أيها القارئ الكريم - إلى دُرّة غالية من الدُّرَر المُكتنزة في شخص عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، طيبة القلب : وهى التى تعتبر مفتاحاً لشخصيته العظيمة ، وهى صفة تصبّ فيها جميع صفات الحمد ، وكلَ خلال البِر التى إذا اتصف بواحدة منها إنسانٌ سمت به إلى أعلى مكانةٍ بين أقرانه ، فما أجمل أن يكون المرء طاوياً صدره على قلب طيب يفيض السلام منه على من حوله ، وينعم بالحب كل ّمن يعيشون معه ، ويأمن على نفسه كلُّ من يتعاملون معه ، وقد زكّى القرآن الكريم هذا النوع من القلوب في قوله - عز من قائل - في الآية الكريمة التى تسطع فى :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لقد كان عبدُ الله يتمتع بطيبة القلب ، التى أورثته سلامة الصدر ، فنبعت - من ذلك - كلّ صفات النُّبل وكريم الخصال ، وسنيّ الفعال ، فتقبّله مُجتمعُه بقبول حسن ، وأحاطه بقلوب أحبّته وآثرته على نفسها ، وفضّله أصحاب هذه القلوب على أولادهم وذويهم ، وأصبح وسْطَ قومه كالشمس بين الكواكب !

وأورثته هذه الصفةُ صفَةً أخرى رفعت قدره وأعلت ذكره ، وحاز بها شُهرة ذاعت في الآفاق على مدى الأزمان ، ألا وهى حبُّ الفداء . وحب الفداء : هو الذى جعله يُقدّم نفسه لوالده عبد المطلب ليذبحه ، وفاء بنذره الذى ألزم به نفسه : (لَئِنْ رَزَقَهُ اللهُ بِعَشْرَة أَوْلادٍ : لَيَذْبَحَنَّ عاشِرَهُمْ) !

وقصة هذا النبأ ، أن عبد المطلب كان قد عزم على حفر بئر زمزم ، فتولى ذلك بنفسه .. ولم يكن معه أولادٌ إلا ولده الحارث ، فشعر في هذا الوقت بحاجته إلى الذرية ، فنذر إن رزقه الله عشرة أولاد : أن يقدم أصغرهم قُرباناً أمام الكعبة ! وكان عبد الله هو الأصغر سناً ، فصمَّم عبد المطلب على ذبح فلذة كَبده : عبد الله ، وفاء لهذا النذر !..

وبينما هو قد حدّ شفرته ، وساق ابنه إلى الكعبة ليُريق دمَه أمامها ، تطاير النبأ إلى أسماع أهل مكة ، الذين أحبُّوا عبد الله ، وأحاطوه بعواطفهم ، فصرخوا في وجه ،

مُستنكرين ما يهُمّ أن يفعله ، وأبْدَوْا استعدادهم لفداء عبد الله ، بأغلى ما يكون الفداء !.. فعبد الله عندهم هو الحبيب الذى يرخُص أمام فدائه كلُّ غالٍ وكلُّ ثمين !..

ومازالوا يحاولون أن يثنوا الشيخ عن عزمه ، حتى وصل الفداء مائة ناقة ، قدموها قُرباناً يفدون بها فتاهم المحبوب : عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم .. ونعم المُفدّى ، ونعم الذبيح .. الذى بعث فى قومه قصة الذبيح : نبيّ الله إسماعيل : جدِّهم ، عليه الصلاة والسلام .

وهناك رواية عن حديث قاله سيدُنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم - فيما يروى عنه - أنه قال :

« أَنا : ٱبْنُ الذَّبِيحَيْنِ : عَبْدِ اللهِ ، وَإِسْماعِيلَ . »

والله تبارك وتعالى أعلم ..

هل هناك جودٌ يتسامى على هذا الجود ؟!.. إن عبد الله جاد بنفسه .. ليحقق لوالده التمكين للوفاء بنذره ، وهذه هى الدرّة الغالية الثانية التي نُزيح عنها ستائرَ التاريخ لتبرز متلألئة .. تبهر أضواؤها العظماء .. من أصحاب الهِمم العالية ، والأقدار السامية ، الحارسين للمُثُل العليا على مرِّ الزمان !.. ونعرف عظمة فتى قريش المحبوب .. من الأفراح التى أقامها الناس فى أرجاء مكة المكرمة .. ابتهاجاً بفدائه . ونجاته من الذبح ؛ لأنهم أحبّوه : فأحبّوا له الحياة ! .

ومازال الناس حتى الآن يتناقلون قصة ذبح عبد الله أبي النبي ﷺ ونجاته من هذا الذبح بالفداء .. كلما ذكروا قصة ذبح نبي الله إسماعيل عليه السلام التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، في الآيات الكريمات التي تسطع في سورة الصافات :

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾

وهذا رافد من روافد نهر العظمة يصب في شخصية أم العظماء .. سيدة نساء العالمين صاحبة السيرة رضي الله عنها وأرضاها وعليها من الله الصلاة والسلام .

الجد الأعلى عبد المطلب:

أحصى أستاذنا الكبير الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله رحمة واسعة لعبد المطلب ثلاث صفات ، جاء ذكرها في كتابه القيم «خاتم النبيين» الجزء الأول (دار الفكر العربي)سنة ١٩٩٤وهي:

الأولى : الطيبة والسماحة .

الثانية : أنه كان مباركاً .

الثالثة : عزمته وإصراره على ما يقوم به من خير .

ولعل أستاذنا الإمام أبا زهرة يقصد أن هذه الصفات تقع ضمن صفات النبل التي تميز بها هذا الرجل ميراثاً عن آبائه وأجداده من حماة بيت الله الحرام . ومن هذه الصفات النبيلة صفة الكرم التي توفرت فيه وفي أقرانه من إخوته وبني عمومته فساقت إليهم سقاية الحجيج ورفادة الحجاج من العرب .. هذه الصفة هي التي دفعته أن يحفر بئر زمزم المباركة .. ذكرى جديه إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام وجدته الكبرى هاجر عليها السلام ..

وقصة حفره لبئر زمزم قصة يرى من سياقها أهل المعرفة والحكمة ، العناية الإلهية العظمى التي أحاط بها الله سبحانه وتعالى بيته الحرام وأهله الذين يعيشون حوله حراساً أمناء شرفاء .

ويروى هذه القصة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي الله عنه وأرضاه عن أبيه عن جده عبد المطلب الذي قال : « إني لنائم في الحجر (بجوار الكعبة) إذ أتاني آت فقال « احفر طيبة !!! قلت وما طيبة ؟ ثم ذهب عني . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاء فقال : احفر بُرّة !! قلت وما بُرّة !! ثم ذهب عني . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فقال : احفر المضمونة ! قلت وما المضمونة ؟ ثم ذهب عني ..

فلما كان الغد ، رجعت إلى مضجعي فنمت ، فجاءني فقال احفر زمزم قلت وما زمزم ، قال : لا تنزف أبداً ، ولا تذم ، وتسقى الحجيج الأعظم وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعظم عند قرية النمل » .

وقد فسر الإمام أبو زهرة رحمه الله رحمة واسعة الفرث والدم بأنه عند المذبح الذي كانت قريش تذبح ذبائحها فيه ، ومعنى قرية النمل بالمكان الذي كان فيه نمل . ووجد الغراب ينقر عندها وهى علامتان تحددان المكان وتدلان على صدق الآتي الذي أتى عبد المطلب في منامه .

فعزم على حفر هذه البئر المباركة . وقد تكبّد في حفر هذه البئر المباركة المشاق والصعاب وبذل في هذا السبيل جهداً جهيداً كانت نهايته أن تفجر الماء المبارك لتستأنف

الحياة في البلد الحرام بهاءها ورونقها وتدب في عروق أهل مكة وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقد انفرد عبد المطلب بهذا العمل الجليل النبيل مع مساعدة بسيطة من ابنه الحارث في الوقت الذي اكتفت قريش بالمراقبة فقط دون الاشتراك معه في هذا الفضل حتى إذا انبجس الماء . . وتفجرت عيون زمزم بالماء ينساب على جنبات البئر اجتمعوا حوله يريدون فرض سلطانهم على هذا الماء المبارك معه شركاء له ، ورددوا أن حقهم ثابت فيه ؛ لأنه يفيض من بئر إسماعيل جدّهم جميعاً . فلم يسلم لهم بالسلطان على الماء وهذا حقه وحده ؛ لأنه الذي تعب . واجتهد في حفر البئر ولكنه لا يمنع الماء عنهم فقنعوا بذلك راضين .

وإني أتعجب وأتساءل : كيف تركت الأجيال من العرب عامة ، ومن قريش هذه البئر المباركة لعوامل التعرية تلقى عليها الرمال والصخور تردمها وهى أثر من آثار جدهم نبى الله إبراهيم وجدهم الأقرب نبى الله إسماعيل عليهما الصلاة والسلام؟ ثم هى مصدر الحياة التي عاشت بها جموع أهل البيت الحرام . . وامتلأت به مكة بالأنس والطمأنينة والعيش الرغيد ؟

ولكن مما يزيل هذا العجب ويبدّد هذه الدهشة الحكمة

الإلهية وراء هذا السياق ، وذلك أن الحكمة الإلهية تتجلى في أن جلائل الأعمال ليست مخصصة لعامة الناس وهى مرهونة على خواص الرجال وإنما اختصهم بقضاء حوائج الناس ، لا يقوم بها إلا هم ، ولا تنتظر أحداً سواهم .

ومن ناحية أخرى لو قام بهذا العمل كل الناس ما تحقق هذا الفضل لعبد المطلب ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يفوز هذا الرجل بهذه المنزلة العالية بين قومه وعلى مدى الأزمان ليعلو ذكره في العالمين إلى يوم القيامة حيث يظل التاريخ إلى أبد الآبدين يذكر عبد المطلب بأنه جلب الخير لأهله ووطنه وللمسلمين بهذا العمل الجليل .. وهو حفر بئر زمزم العذبة الماء المباركة النبع .

وَهٰذا مِصْداقٌ لِحَدِيثِ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ الَّذِى يَقُولُ فِيهِ :

« اَلْخَيْرُ : خَزائِنُ ، وَمَفاتِيحُهُ : الرِّجالُ » ..

فطوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر والويل ثم الويل لرجل جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير ..

جدّها هاشم :

وهو الجد الثاني لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

اســـــمه الذي ولد به « عمرو » ولكنه اشتهر باسم « هاشم » ومعناه يأتي من فعل « هشم » حيث كان يهشم الخبز (يكسره) حتى يصلح ثريداً يطعم منه الناس فيشبعهم . فعل ذلك في السنة العجفاء التي أصابت قومه . وظل يفعل ذلك مع الحجيج في بيت الله الحرام .

كانت له شخصية مؤثرة . حكمت سلوك قومه إبان حياته .

وكان طموحاً يحقق بتجارته مكاسب له خاصة ولقومه عامة . فهو أول من قام برحلتى الشتاء والصيف وتبعه قومه في ذلك : وهما الرحلتان المذكورتان في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة قريش :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

وقد كانت لهاشم هذا « السقاية والرفادة » أى سقاية الحجيج وإطعامه .

ما إن يطالع الناس هلال ذي الحجة حتى يقوم في قومه خطيب يقول لهم :

« يا معشر قريش !! إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وإنه يأتيكم من هذا الموسم رواد الله ، يعظمون حرمة بيته فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزوّاره ، يأتون شعثاً غبراً ، من كل بلد على ضوامر كأنهم القداح ، قد أزحفوا وتلفوا وأرملوا فأقروهم واسقوهم » .

وكانت قريش تنفذ هذه الوصايا وتقوم بواجبات إكرام ضيوف الله زوار البيت الحرام .. وهاشمهم يتقدمهم حاشداً كل إمكانياته لأداء خدمة هذا البيت العتيق وزواره . ومع ذلك لا يصرفه ذلك عن إكرام الفقير وإغاثة الملهوف وإطعام المسكين في أى وقت من أوقات السنة . وليس ذلك قاصراً على أيام الحج . حتى ذاع صيته وحملت الألسنة والمهج والرياح سيرته الطيبة إلى جميع الآفاق المحيطة بالعرب .. حتى طمع الناس في أن تربطهم بهذا الرجل أية رابطة .

وقد حدثت كتب السيرة عن نور سيدنا رسول الله ﷺ الذي كان يتلألأ على صفحة جبهته .. وأخذت هذه الأنوار

بأبصار الرهبان والأحبار من أهل الكتاب الذين كانوا يخالطون أهله ويعيشون معهم .

وهكذا نرى أن « هاشم » جد سيدتنا الزهراء ، قد حظى بمنزلة عالية وسط العرب ، باعتباره سيداً من سادات قريش وحامياً من حماة الكعبة بيت الله الحرام . رفعته إلى هذه القمة العالية ، ملكات زكية ، ومزايا راقية ، وأخلاق رفيعة ، وكرم واسع ، واستعداد طيب ، وفصاحة حكيمة ، وذكاء خارق ، وتواضع جمّ ، وكل ذلك جمع القلوب حوله ، وحبّب فيه أهله ، وجذب إليه قومه ، فعقدوا له لواء الزعامة . . وتولى السقاية والوفادة والرفادة . وهم عن طيب خاطر به راضون .

كنز الأخلاق ترثه الزهراء :

من مجموع هذه المناقب الجليلة والأخلاق الجميلة التي ركزها الله سبحانه وتعالى في أصول هذه السيدة الكريمة ورثت مكارم الأخلاق كنزاً عظيماً ، وعناصر خصبة تكونت منها عواطفها الزكية ، ونوازعها الطاهرة ، وأصبح وجدانها تربة خصبة نزل عليها القرآن الكريم ، فاخضوضرت ، وأنبتت من كل زوج بهيج .

واجتمع لها من خلال والدها العظيم ، ومن نقاء سريرة والدتها ، ومن مناقب أجدادها ما جلاّه القرآن ونمّاه الذكر

الحكيم . فكانت بحق سيدة نساء العالمين . وظهرت مع أول شعاع من شمس الإسلام مفردات هذا الكنز العظيم الذي طوت عليه إهابها ، واستقر في كيانها ثروة عظيمة اغتنت بها واستغنت عن كل ما تحتويه الدنيا من مال ، وما يستقر في جوف الأرض من الذهب والفضة ، وأصبحت بهذه القيم أمَة لله وحده لا شريك له ، لم تنشغل عنه بمال اكتنزته ، ولا بمنصب من مناصب الحياة الدنيا قد شغلته و ولا بزينة من زينة الحياة الدنيا طلبتها . . لأن ما حازته من شرف نسبها ، وما نالته من عناية إلاهية ، وما يمطرها به أبوها من حنان . . وما يسكب في عقلها من علم ، وما يتغذى به كيانها من حبّ ، وما يكن لها في قلبه من احترام . . قد سما بها فوق ذلك ورفعها إلى عنان السماء .

وهل تبحث عن متاع الحياة الدنيا من سمعت الله سبحانه وتعالى يقول فى سورة آل عمران :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ
وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

هل تلتفت إلى الدنيا من سمعت الله سبحانه وتعالى يقول : فى سورة الحديد الآيتان ٢٠ ، ٢١ :

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾
سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ

وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾

وكيف تركن إلى الدنيا ، أو تشتهيها وهي تسمع أباها ﷺ يقول :

« الدنيا دار من لا دار له وأهل من لا أهل له يطلبها ويسعى وراءها من لا عقل له » .

ويردد أيضاً على مسامعها :

« يقول العبد مالي . مالي . مالي !! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت وما لبست فأبليت وما تصدقت فأبقيت » .

لعلك قد عرفت الآن أيها القارىء الكريم ماذا قصدت من السياق السابق .

إني إنما أردت أن أجلّي حقيقة المثل الأعلى الذي إنشغلت بالوصول إليه ريحانة سيدنا رسول الله ﷺ من الدنيا والذي ارتقت بانشغالها به إلى مقامها الرفيع بحيث أصبحت سيدة نساء العالمين ، إن مثلها الأعلى الذي ذاب كيانها كله فيه حباً عميقاً ، وأشواقاً روحية وسلوكاً فاضلاً وسيراً على مقتضاه ، وجهاداً في سبيله هو القرآن الكريم هدياً وسيدنا

رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم خلقاً والتزاماً وسلوكاً .

هذا هو المثل الأعلى الذي سيطر على قلبها ، وهيمن على وجدانها فأذعنت له ، ووظفت جوارحها في طاعته ، وسخرت هواها تبعاً لما يحكم به ، وولت وجهها شطره ، حازمة أمرها .. مصممة على الوصول إليه ، مقبلة عليه بالكلية ، يستوي عندها إقبال الدنيا وإدبارها ، فكل همها هو أن تكون في حضرة الحق سبحانه وتعالى هي أمة له عابدة حامدة قانتة ، خاشعة ، وهو ربها ومعبودها وسيدها وهو الرحمن الرحيم ، وأن تكون على طريق أبيها وهو الصراط المستقيم .

هذا هو المثل الأعلى لبنت سيد الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . هذا المثل الأعلى الذي حكم حركة حياتها حتى أصبحت كل لحظة من لحظات عمرها مشغولة إما بكلمة خير ، أو بفعل خير ، أو بموقف يخلد ذكراها في العالمين . حتى فازت بحق بمقام سيدة نساء العالمين .

بداية كفاحها :

إليكم أيها القراء الكرام هذا النبأ من أنباء سيدتنا الزهراء رضوان الله عليها :

المعلوم أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بعثه الله سبحانه وتعالى بالحق نبياً ورسولاً والزهراء في سن الخامسة من عمرها ، وأنه قد تلقى الأمر من الله سبحانه :

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ الشعراء

وكذلك تلقى الأمر من الله في قوله في سورة الحجر :

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾

ومضى سيدنا رسول الله ﷺ يبلغ دعوة الله عز وجل ويبشر الناس بالإسلام ، ويرغبهم في طاعة الله سبحانه ، ويواصل الدعوة في كل مكان فآمن به القليل وكفر به الكثير . وفريق من الكفار لم يكتف بإعراضه عن دعوة الله وإنما ترصد لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بالأذى يناله وينال من اتبعه من المؤمنين . وفي يوم كان عليه الصلاة والسلام مع فريق من أصحابه جالسين في المسجد الحرام . وقام هو يصلي لله عز وجل بينما كان

بعض صناديد الكفر من قريش جالسين حول الكعبة يتوسطهم عدو الله وعدو رسوله أبو جهل عمرو ابن هشام عليه لعنة الله والناس أجمعين ، وقد لفت نظره ركوع سيدنا رسول الله ﷺ وسجوده ، ومسّ سجوده نزعة الحقد في قلب عدو الله فتغيظ وأحب أن ينفس عن هذا الغيظ ووجد ضالته في أحشاء ناقة كانت قد ذبحت وترك ذووها بقاياها غير الصالحة لهم ومنها هذا السلا فطلب الجهول من جلسائه الحاقدين أن يقوم أحدهم بحمل هذا السلا فيلقيه على كتفى سيدنا محمد ﷺ . فاستجاب له أشقى الجالسين عقبة بن أبي معيط فحمل الفرث وألقاه على ظهر سيدنا رسول الله ﷺ . فطرب بذلك عدو الله أبو جهل لعنة الله عليه وضحك فريق الأشقياء .. وخشى المُستضعفون من الناس أن يبادروا إلى إزاحة هذا السخف وهذا الأذى عنه عليه الصلاة والسلام .

وساقت عناية الله سبحانه سيدتنا الزهراء .. فلما رأت بعينيها ما نال هؤلاء الكفار الأشقياء من أبيها بادرت بإزالة الأوساخ عنه ، وظلت تدعو عليهم . ثم ذهبت إليهم ووبختهم وأغلظت لهم في القول . فما كان من الأشقى الجهول أبي جهل إلا أن لطمها على خدّها .. وهذا هو فعل الخسيس الدنيء الوضيع .

وتصدى له أبو سفيان بن حرب الذي وبخه قائلاً : أتضربها وهى سيدة في قومها ؟ وفي رواية أنه طلب من الزهراء أن تلطمه لطمة بلطمة ففعلت .. وبذلك تكون قد اقتضت لنفسها .

فَلَمَّا رَأَى سَيِّدُنا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ تَعالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ - ما كانَ مِنْ أَبِى سُفْيانَ : دَعَى اللهَ لَهُ بِهٰذا الدُّعاءِ .

« اَللَّهُمَّ لَاتَنْسَها لأَبِى سُفْيانَ بْنِ حَرْبٍ » .

فأجاب الله دعوة نبيه ﷺ فشرح الله صدر أبي سفيان للإسلام يوم الفتح ، وبإسلامه نجاه الله من هلاك محقق ، ثم جعل إبنه معاوية بن أبي سفيان خليفة وأميراً للمؤمنين .

إن الزهراء في هذا الوقت كانت في سن السادسة ، لم تبلغ سن الصبا ، إنما كانت في مرحلة الطفولة .. أى أنها في عمر الزهور .. تكون الطفلة مشغولة بلعب الأطفال .. والثياب الزاهية الألوان وما يطيب لها من الحلوى .. ولا تكون في مثل هذه الحالة من الوعى ، والشعور بالمسئولية والولاء للدعوة ..

ولكنها فاطمة بنت محمد الرسول الأعظم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تتحمل معه مشاق التبليغ وتشاركه بقدر ما منحها الله من إيمان في الكفاح على

طريق الله تتزود بالصبر .. وتتذرع بالحكمة ، وتعبر بفصيح البيان . وما كان هذا ليحدث منها إلا بدوافع المثل الأعلى الذي شغلها فجعلها تفعل لأبيها وهى في سن السادسة ما تفعله والدتها أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها وهى في الرابعة والخمسين .

ولعل هذا ما جعل أباها يناديها بقوله :

« يا أُمَّ أَبِيها » . . . صلى الله وسلم عليه وعليها وعلى أهل البيت أجمعين .

إن أسرة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ليست أسرة عادية تعيش حياتها وفق هواها ، وتعبّ من المتاح لها من متعة الحياة الدنيا كما يشاء لها المال والعزّ والسلطان . وإنما تعيش حياتها ما تتطلبه الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى . وتكون متعتها محدودة بحدود مكان النصر الذي يتحقق لهذه الدعوة وتؤقت بميقات الفتح لصاحب هذه الدعوة عاهل هذه الأسرة الشريفة أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ .

ومن خلال النبأ الذي أقصُّه في السطور الآتية يتلألأ معدن سيدنا رسول الله ﷺ هناك في شعب أبي طالب عندما تجرد أعداء الدين من كل القيم وخلعوا ماهو راسخ في الجبلة العربية من مروءة وشهامة وقرروا فيما بينهم مقاطعة بني هاشم رهط النبى ﷺ وأهله الأقربين لا يزوجونهم ولا

يتزوجون منهم ، ولا يبيعون لهم ، ولا يشترون منهم ، ولا يتعاونون معهم ، ولا يهنئونهم ، ولا يعزونهم ، ووثقوا هذه المقاطعة بوثيقة علقوها في أستار الكعبة .. إصراراً منهم على تنفيذ بنودها .. بنداً .. بنداً .. متجاهلين في ذلك صلة الرحم ، وحرمة القرابة .. مما يدل على شدة غيظهم ، وقسوة قلوبهم .. وهول حقدهم .

والأسرة الشريفة وضمنها الزهراء .. وعلى رأسها سيدنا رسول الله ﷺ محصورون في هذا الشعب يقاسون الجوع والحرمان شأنهم شأن المسلمين من ذوي قرباهم والمسلمين ممن سواهم يتساوون جميعاً في قسمة هذا البؤس وهذا الحرمان وهذه المعاناة .. وإن تميزوا على غيرهم فإنما يتميزون بقوة التحمل ، والتذرع بالصبر ، وروعة التسليم لله عز وجل .

وفي هذا المقام تبدو صورة الزهراء مشعة لأنوار الإيمان ، والصبر ، والإنقياد لله سبحانه والامتثال لقضاء الله وقدره .. وقدمت الزهراء للمحاصرين المثل الأعلى في الصبر على لأواء الجوع وقسوة الحرمان .. وكأنها قد أشربت روحها شراباً عذباً حلو المذاق من قول الله عز وجل في الآيات رقم ١٥٥ ـ ١٥٧ من سورة البقرة :

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾

أو أن روحها استشرفت الغيب وسمعت هذه الآية رقم ١٧٧ من سورة البقرة :

﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾

ثلاث سنوات عجاف مرت على الزهراء وهى تتوسط الأسرة الشريفة مع شقيقتها زينب الكبرى ، وشقيقتها أم كلثوم .. جاعت مثلما جاع رهط المسلمين ، وأرقت ؛ لأن الجوعان لا ينام وقاست أكثر مما قاسوا ، ولكن مازال إيمانها

متوهجاً والإسلام في قلبها يترعرع ولسانها دائماً رطب بذكر الله ، فلا غرو أن يسلط الله القرضة لتلتهم الوثيقة القاسية التي صب في حروفها صناديد الكفر من قريش كل حقدهم الأسود ماعدا « باسمك اللهم » . .

وعاد المسلمون إلى بهجتهم بإيمانهم وعادت إليهم الفرحة بدينهم وانتظروا يوم النصر والفتح المبين الذي سطعت أنواره في الأفق قبل الزمان بزمان ، ومع نور الصباح سطع وجه الزهراء بنور الإيمان فعادت النفحات إلى البيت الكريم . . فيه بدر الأرض ونور السماء سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة وأزكى السلام والأم الرءوم سيدتنا خديجة ، وشقيقتاها أم كلثوم وزينب عدن إلى البيت يتغنين بفضل الله عليهم ويترنمن بآيات الله والذكر الحكيم الذي هو منقوش على صدورهن ومزينة قلوبهن بزينة الإيمان وتبتهج أرواحهن بالأنوار تسطع على جبين والدهن ، وبالحنان يتدفق من قلب أمهن وذلك فضل الله . . والله ذو الفضل العظيم .

كفاحها في عام الحزن :

لقد نضجت ثمرة الإيمان في قلب أم المؤمنين سيدتنا خديجة رضوان الله عليها ، واكتملت صلاحيتها للقاء ربها راضية مرضية هادية مهدية وناداها سيدها الذي خدمته

فأحسنت الخدمة من فوق سبع سماوات .. قال لها في آخر سورة الفجر :

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾

ولبت أم المؤمنين نداء العلى الأعلى ، الحى القيوم الذي لا يموت أبداً وهو على كل شيء قدير ، وبموتها ودَّع سيدنا رسول الله ﷺ أمّاً حانية وعائلة بأكملها تفيض رحمة ، وتشع عزاً ، وتتوقد إيماناً فسمى العام الذي ماتت فيه عام الحزن .

وبموتها اجتمعت في يد الزهراء رايتان للكفاح رايتها وراية أمّها وأم المؤمنين . فأحاطت والدها العظيم بذراعى الحنان والبر . وحشدت ما أبقى الحزن من كيانها الغض ، وقوتها الإيمانية وسخّرت كل ذلك في خدمة سيدنا رسول الله ﷺ وأعتقد أن هذا هو الكفاح أرقى ما يكون الكفاح ، ومن فرط ما أسبغت على أبيها من حنان وما تعهدته من خدمة طاب له ولها أن يدعوها بأم أبيها .. وسام على صدر الزهراء تباهي به الخلق أجمعين .

إن أباها مشغول بهموم الدعوة إلى الله ، يخاطب الناس ، ويربي الصحابة الكرام ، ويسرّي عن الضعفاء ، ويتابع

المهاجرين منهم إلى الحبشة ، ويعرض الإسلام على العرب الذين يأتون إلى البيت الحرام رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، والله سبحانه وتعالى يتابع جهاده الشريف ويقول فى سورة الإسراء الآياتان ٧٨ ، ٧٩ :

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

ومن قبل أمره بما ورد في أول سورة المزمل :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾

والضعفاء من المسلمين يصْلون سوء العذاب على يدى القساة غلاظ القلوب من كفار قريش الذين يتفننون في ابتكار وسائل التعذيب ، وطرائق الامتهان من تعذيب الأبدان ، وتعذيب النفوس ، وكل هذا عبء ثقيل على قلب الحبيب النبى محمد ﷺ ، ومن بعد هذا وقبله هموم هؤلاء المسلمين الأبطال من أحبابه عليه الصلاة والسلام الذين باتوا لا يطيقون الحياة بمكة المكرمة فأمرهم أن يهاجروا إلى الحبشة محافظة على ألفة الإيمان في قلوبهم ، ونور الحب في صدورهم .. وهو مثقل بالحزن على فراق أم المؤمنين خديجة الكبرى رضى الله عنها .. وفراق عمه أبي طالب .. ونظرته إلى عيون الحاقدين الكافرين من قريش تقطر شماتة وتفيض غيظاً ، ويخترق قلوبهم فيزعجه انفلاقها على الكفر به والكيد له فيمتلىء قلبه حزناً . ويعاتبه ربه سبحانه وتعالى ويقول في سورة الكهف :

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

كل هذه الهموم وأكثر منها ينشغل بها كيان سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، ولحقت أم المؤمنين خديجة بالرفيق الأعلى من الجنة .

وبموتها وبموت أبي طالب خلى الجوّ للكافرين الخبثاء يضمرون السوء ، ويكيدون الكيد ، ويتآمرون لإلحاق الأذى بشخص سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وبأصحابه الميامين وسجل الله عليهم ذلك في سورة الطارق :

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

وإن بناته الثلاث السيدات زينب ، ورقية ، وأم كلثوم في أعذار مختلفة .

فمن يضيء بوجهه المشرق منزل سيدنا رسول الله ﷺ .

إنها فاطمة الزهراء أم أبيها . .

لقد استودع الله قلبها ينبوعاً دافقاً من الرحمة والحنان ، ثم ورثت من أمها نهراً آخر يتدحدر شفقة ورأفة وأغدقت على أبيها كل هذا الفيض ، وبادلته حباً بحبّ ، ووفاء بوفاء . . وأنارت منزله ، ودبرت له حوائجه ، وأعدت له الطعام والشراب ، وكانت تعد معه طيب الكلام تسري به عنه ، وتملأ في كل ذلك بعض الفراغ الذي تركته صديقته وأمها وأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها .

هذا هو أرقى أنواع الكفاح تمارسه الزهراء . . تعين به أباها ﷺ على أعباء الدعوة إلى الله في دأب لا يعرف الكلل ،

ونشاط لا يعرف الملل ، وصبر لا يعرف الضجر ، وقوة لا يتطرق إليها ضعف ، وحكمة لا يرنّقها تهوّر . ووجهها كالبدر ليلة التمام يضيء البيت النبوي العالي ، ويضيء معه طريق أبيها النبى الأعظم أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، مما جعل حضرة النبى ﷺ يعمق فى وجدان أصحابه توقير الزهراء ، ويتابع ترسيخ هذا المعنى في قلوبهم فيقول (وهو آخذ بيدها) :

« مَنْ عَرَفَ هٰذِهِ : فَقَدْ عَرَفَها .. وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْها : فَهِيَ فاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَهِيَ بِضْعَةٌ مِنِّى ، وَهِيَ قَلْبِى ، وَهِيَ رُوحِى الَّتِى بَيْنَ جَنْبَيَّ ، مَنْ آذاها فَقَدْ آذانِى . ومَنْ آذانِى : فَقَدْ آذى اللهَ » .

كفاحها في الهجرة :

مكّة البلد الحرام تتسربل ثوباً قاتماً من ظلام الليل وأهلها في هرج ومرج ، والكفار منها ، قد أذلهم خروج سيدنا رسول الله ﷺ من بيته مستلماً الطريق إلى دار الهجرة .. يثرب التي سماها المدينة بعد أن حثى التراب على رءوس الشباب المضلل ، وكانوا مرابطين أمام البيت ينتظرون خروجه لينفذوا فيه ما تآمر عليه القوم غلاظ القلوب من قتل .. تلك المؤامرة التي سجلها القرآن الكريم في الآية (٣٠) من سورة الأنفال :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

في آية أخرى بسورة التوبة وهى الآية ٤

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

ووصل موكب النور المحمدي إلى يثرب « المدينة » واستقر بديار بني النجار حيث بركت ناقته القصواء وأقام المسجد الأول في الإسلام .

واكتملت له هالة عظيمة من رجال يحبونه من المهاجرين والأنصار ، يحيطون به وفي كياناتهم قلوب مترعة بحبه ، فياضة بالهيام به ، وأرواح شغلها الشاغل السعى على راحته ، اقتدائه إذا جاء يوم الجهاد في سبيل الله .

وليس يوجد في كتب التاريخ ، أو كتب السير ، ما يصف لنا مشاعر سيدتنا الزهراء ليلة غادر حبيبها والدها منزله .. ولم أجد فيها وصفاً لوداع كل منهما للثاني .

إن لحظة خروجه من المنزل باليقين قد أثارت في نفس الزهراء كثيراً من الشجن . فهى لم تألف فراق روحها حضرة النبى ﷺ وهو أيضاً لم يألف مفارقة روحه الزهراء أم أبيها . فكيف استطاعت أن تسلم له بالرحيل ومغادرة البلد الحرام !! حيث النشأة وذكريات الصبا والأمن والسلام اللذين يضفيهما على مكة البيت الحرام ؟! وكل ما أستطيع أن أبرِّر به قصوري عن التعبير بوصف مشاعرها في هذه اللحظة هو التسليم لله الذي يعيش به أفراد هذا البيت الكريم ويتصف به سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وأعضاء أسرته تتوسطهن الزهراء البتول صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وبعد مرور ليال قليلة ولكنها ثقيلة جاء حبيب الأسرة الكريمة سيدنا زيد بن حارثة ومعه أبو رافع خادم سيدنا رسول الله ﷺ ومعهما راحلتان لتحملا الزهراء وأم كلثوم وعائشة بنت سيدنا أبي بكر وأمها موكباً مضيئاً بأنوار الحق هجرة إلى الله ورسوله ﷺ ..

إنه أمر الله جل جلاله تذعن له الزهراء وتجد راحتها في

العمل على تنفيذه حباً فيه ورضاً بأحكامه . حتى لو كلفها ترك وطنها الذي يتلألأ فيه البيت الحرام وتعبق فيه روضة أمها وأم المؤمنين خديجة .. التي يفيح منها عطر أعمالها الصالحة ويشع منها نور إيمانها العميق .

آن وقت الرحيل :

ودّعت الزهراء وأم كلثوم أختهما الكبرى زينب زوج أبي العاص . وكلهن توجهن إلى الحجون ، حيث قبر الأم الطاهرة خديجة .. تنعم فيه بالروح والريحان ، والرضا والرضوان ، والنعيم والسلام من الرحيم الرحمن .

وتهيأ الموكب المضيء للرحيل .

وإن قلب فاطمة وقلب أم كلثوم ممتلئان بالإيمان ولسان كل منهما يلهج بذكر الله عز وجل .. والشوق لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يحدوهما .. ويستحث القافلة المباركة لسرعة الوصول إليه والمثول بين يديه .

وإذ هما على ظهر الراحلة على هذه الحال إذا بعدو من أعداء أبيهما وأعداء الله ينخس البعير فتسقطان على الأرض . هذا العدو الآثم ذكرته كتب السيرة باسم الحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصي .. هكذا حدثت كتب السيرة .

إن المرء ليدهش كل الدهشة ويعجب كل العجب من فعل هذا الخبيث الذي راح يؤذي امرأتين تركتا الديار إلى غير رجعة ولم يحدث منهما أية إساءة ولو بكلمة لأحد ، ولا نال أحداً منهم أذى . . بأى صورة من صور الأذى . . في الوقت الذي هما سيدتان في قومهما .

هل وصل الحقد المركّز في قلوب أهل الكفر إلى هذا الحد الذي تنفر منه الطبائع الإنسانية ، وترفضه الأخلاق ، وتستنكره النفوس المستقيمة ! ! !

على كل حال قد انتقم الله سبحانه وتعالى لكريمتى سيدنا رسول الله ﷺ بأن سلط الله عليه جندياً باسلاً من جنوده الغر الميامين هو سيف الله الغالب عليّ بن أبي طالب نفذ حكم سيدنا رسول الله ﷺ فيه وقتله في يوم الفتح وهذا جزاء الظالمين .

مقرها واستقرارها في المدينة المنورة :

بنى سيدنا رسول الله ﷺ المسجد في المدينة المنورة قبل أى مشروع . ذلك ؛ لأن الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، وإن المسجد بيت الله حقه أعلى الحقوق ولا يعلو حقه حق ، وماكان سيدنا رسول الله ﷺ ليبني بيتاً له أو لأحد من صحابته قبل أن يبني بيت الله عز وجل .

وهو في موقفه هذا متأس بما ورد في القرآن الكريم إخباراً عن أبيه وأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام عندما رفع يديه إلى السماء داعياً الله سبحانه وتعالى عندما وقف على أرض مكة بجوار البيت المحرم :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

إبراهيم

فالصلاة في الإسلام تجمع الدين كله في كلمات وحركات مخصوصة لا يخاطب بها ولا يقام بها إلا لله وحده لا شريك له : وأشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ قد خاطبه مالك الملك ذو الجلال والإكرام وقال فى سورة الأنعام) فى الآيتين ١٦٢ ، ١٦٣ .

﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

ولله عز وجل كلف المسلمين بالصلاة كواجب أول فإن قبلها قبل سائر العمل وإن ردت ردّت وسائر العمل ، ونوّه

وأشاد بالصالحين المحافظين عليها بقوله في الآية ٤١ من سورة الحج يقول فيها :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

فلا غرو إذ بدأ سيدنا رسول الله ﷺ ببناء المسجد يؤسس على معانيه السامية مجتمع المدينة المنورة .. ذلك المجتمع الذي بذل في تربيته العرق والدم والدموع ليكون المجتمع الأفضل والقدوة الحسنة للمجتمعات الإسلامية في كل مكان وفي كل زمان ..

وبجوار هذا المسجد بنى سيدنا رسول الله ﷺ بيته بسيطاً غاية في البساطة متواضعاً غاية في التواضع . فمستلزمات البناء فيه أحجار مرصوصة أو جريد يمسكه الطين ، وهو يتكون من حجرات تُفتح كلها على فناء المسجد مسقوفة بالجريد والطين بارتفاع على قدر دخول الإنسان وخروجه . وصفه سيدنا ومولانا الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام فقال ، كما رواه الإمام البخاري فقال :

« كنت أدخل بيوت النبى ﷺ (أى حجراته) وأنا غلام

مراهق فأنال السقف بيدي ، وفي صحيح البخاري أيضاً أن بابه عليه الصلاة والسلام كان يقرع بالأظافر .. يعني لا حلق له .

وأثاث البيت حجة لتواضع سيد المتواضعين عليه الصلاة وأزكى السلام . فمفرداته قليلة وخشنة .. يكفي أن سريره كان لوحات من الخشب مشدودة بالليف .. ولا غرابة في ذلك فهو الذي بلغت عظمته أن الحصير كان يترك أثراً على جسمه الشريف ..

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد أشرف خلقك وخاتم أنبيائك ورسلك وسيد المتواضعين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

استقبل هذا البيت البسيط في بنائه السامق العالي في جوهره سيدتنا الزهراء عليها السلام . وهى راضية مطمئنة .. قانعة .. هادئة .

ومما زادها به سروراً أنها شعرت بوحدة وثيقة مضيئة تربط بين المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين كوّنوا هالة نورانية تحيط بأبيها وسطهم بدراً في ليلة التمام، يرقمهم بعين الرضا ، فيصافح وجوهاً مشرقة بالإيمان مضيئة بالإسلام ، يفيح من أصحابها عطر المحبة ، ويسطع على

صفحاتها نور الحب في الله .. وتسري بين أصحابها روح الإيثار ، وتربط بينهم أسلاك النور وخيوط العروة الوثقى لا انفصام لها .. والله السميع العليم .. يحبوهم برحمته وحنانه ، ويزكيهم ويثني عليهم في قوله عز من قائل في سورة الحشر :

لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

هذه هي الأوصاف الذي اتصف بها مجتمع المدينة المنورة من المهاجرين والأنصار

أخوة في الله ، وحب في الله ، وصداقة مقدسة أعلى وأسمى العلاقات التي تربط بين قلوب الناس عباد الرحمن والتي وصفها أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ في الحديث الشريف الذي رواه أبو داود وغيره عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ مِنْ عِبادِ اللهِ قَوْمًا ، لَيْسُوا بِأَنْبِياءَ وَلَا شُهَدَاءَ ، وَلَكِنْ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِياءُ وَالشُّهَداءُ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعالَى يَوْمَ الْقِيامَةِ » .. فَقامَ رَجُلٌ مِنْ مُؤَخِّرَةِ الْمَجْلِسِ وَأَشارَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِيَدَيْهِ وَقالَ : يا رَسُولَ اللهِ !! قَوْمٌ لَيْسوا بِأَنْبِياءَ وَلا شُهَداءَ وَيَغْبِطُهُمُ الأَنْبِياءُ وَالشُّهَداءُ لِمَكانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعالَى يَوْمَ الْقِيامَةِ : اِنْعَتْهُمْ لَنا يا رَسُولَ اللهِ !! (يَعْنِي صِفْهُمْ لَنا) ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « هُمْ قَوْمٌ تَحابُّوا فِي اللهِ . اِجْتَمَعُوا عَلَى مَحَبَّةٍ مِنَ اللهِ تَرْبِطُهُمْ ، وَلا أَنْسابٍ تَجْمَعُ بَيْنَهُمْ ، وَلا أَمْوالٍ يَتَقاسَمُونَها .. واللهِ إِنَّهُمْ لَنُورٌ . وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ . تُنْصَبُ لَهُمْ كَراسِيُّ مِنْ نُورٍ حَوْلَ الْعَرْشِ ، لَا يَخافُونَ إِذا خافَ النَّاسُ ، وَلا يَجْزَعُونَ إِذا جَزِعَ النَّاسُ » .. ثُمَّ تَلَى قَوْلَ اللهِ – عزَّ وَجَلَّ – مِنْ سُورَةِ « يُونُسَ » .

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

هـذا هـو المجتمع الذي سعدت بـه سيدتنا الزهراء رضى الله عنهـا وأرضاها .. تنفسـت فيـه الهـواء النقى ، وتنسـمت فيـه النسـيم الذكي ، وشـمـت فيـه عـبـير الحب في الله ، وكـان هذا المجتمع هـو ضـالتهـا المنشودة ، رزقهـا الله سـبحانه وتعالى الحياة فيـه فـرضـيت واسـتـقـرت وأقـرت وهدأت .. ونعـمت فيـه براحتها ومسرتها .

وحققت لهـا علاقة الحب في الله ما لـم تحققه علاقة القرابة والنسب من غلاظ القلوب من قريش ، وقدم الأنصار لأبيهـا ما فشل فيـه أقرب الأقربين نسـبـاً من كفار قريش ونعـم ما فعل الأنصار !!! فقد كان أثره على نفسية سيدة نسـاء العالمين أثـراً رائعـاً حـسـنـاً عـالج مـاكـان بصـدرها من ألـم وشـجن مما فـعله عشيرتها الأقربون .

في هـذا البيت البسـيط أقـامت الزهـراء ..

كفاح الزهراء في البيت

الزواج المبارك :

قصة زواج هذه السيدة الجليلة فاطمة الزهراء عليها السلام تثير في المرء بعض العجب .. وإن كان الفضل من أهل الفضل ليس بعجيب . فقد ثبت أن صديق النبى أبا بكر قد هفت نفسه أن يكون زوجاً لها بعد أن تزوج سيدنا رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة وهى الصديقة بنت الصديق رضى الله عنها والتي طلب منها أن تفاتح زوجها رسول الله ﷺ في ذلك فنفذت طلبه ورد الرسول عليها رداً جميلاً ، ثم تلاه سيدنا عمر بن الخطاب يطلب يد الزهراء من أبيها عليه الصلاة والسلام فحظى بنفس إجابته عليه الصلاة والسلام .. قال له ما قاله للصديق ..

انتظر القضاء ، واتفق الاثنان على عبد الرحمن بن عوف مرشحين إياه ليطلب من سيدنا رسول الله ﷺ زواج فاطمة لنفسه ، فقال له « يارسول الله زوّجني فاطمة !! » ، فأعرض عنه فعاد إليهما قائلاً « لقد نزل بي ما نزل بكما » فلم يكن أمامهما إلا سيدنا على بن أبي طالب كرّم الله وجهه فقال له :

« قد عرفنا قرابتك من رسول الله ﷺ وقدمك في الإسلام

فلو أتيت رسول الله فخطبت إليه فاطمة لزادك الله فضلاً إلى فضلك » ..

وشاركهما في ترشيح سيدنا عليّ كرّم الله وجهه للزواج من الزهراء غيرهما من الصحابة مثل سيدنا سعد بن عبادة رضى الله عنه زعيم الأنصار .

ويتضح من السياق السابق أمران :

الأمر الأول : عظمة الحب لسيدنا رسول الله ﷺ الذي وقرّ في قلب الصاحبين الكريمين أبى بكر وعمر وسائر الصحابة الكرام معهما .

الأمر الثاني : حب الصحابة بعضهم البعض .. هذا الحب الذي زادته الأيام توهجاً وكشفت عنه وقائع حياتهم العامة والخاصة .

صادف عرض الصاحبين قبولاً له في قلب سيدنا عليّ عليه السلام عززته مشورة من جاريته التي حفزته أن يخطب الزهراء من ابن عمه أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ .. فرد عليها بسؤال :

وهل عندي ما أتزوج به ؟ فعرفت بفطرتها الذكية أنه يتمنى تحقيق هذا الطلب ولكنه يفتقد المال الذي يقدمه مهراً للزهراء .

فمضى سيدنا عليّ إلى بيت سيدنا رسول الله صلى الله

تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم قاصداً مفاتحته في هذا الأمر العظيم الذي شغل باله ، واستولى على فكره . ولكنه عندما نعم بالجلوس إليه أرتج عليه وهو أمير البيان ، وفصيح اللسان . ولم يستطع أن يبوح بطلبه ، واكتفى بتحية الإسلام ألقاها على أخيه في الله وابن عمه رسول الله (!!) ، منعه الحياء .. ولم يكن أمر كهذا يخفى على النبى عليه صلوات الله وسلامه عليه .. فأحب أن يخرج من صدر الإمام عليّ كلاماً يحمل رغبته فبادره بسؤال :

« ما حاجَـةُ ٱبْـنِ أَبِى طالِبٍ ؟ » .

فصدرت الإجابة منه على استحياء وبصوت منخفض ..

(ذَكَـرْتُ فـاطِـمَـةَ : بِـنْـتَ رَسُـولِ اللهِ !!) ..

فَـأَضاءَ الْبِشْـرُ وَجْهَ أَشْرَفِ الْخَـلْقِ سَـيِّدِنا مُحَمَّـدٍ ﷺ

فَـقـالَ : « مَرْحَـبًـا وَأَهْـلًا . « هِيَ لَكَ » ..

تقول الرواية : وانصرف على هذه الساعة وعاد إلى سيدنا رسول الله ﷺ في الصباح وقد أجمع على اتمام الخطبة والزواج وأفصح بذلك في هذه الكلمات ألقاها على مسامع خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فقال : « فداك أبي وأمي يارسول الله !! » .

إنك لتعلم أنك أخذتني من عمك أبي طالب ، ومن فاطمة بنت أسد ، وأنا صبي لا أعقل شيئاً ، فهديتني وأدبتني

وهذبتني ، فكنت أفضل من أبي طالب وفاطمة بنت أسد في البر والشفقة بي ، وإن الله عز وجل هداني بك ، واستنقذني مما كان عليه آبائي وأعمامي من الشرك ، وإنك يارسول الله ذخري ووسيلتي في الدنيا والآخرة . وقد أحببت مع ما شد الله عز وجل بك من عضدي أن يكون لي بيت وزوجة أسكن إليها ، وقد أتيتك خاطباً ابنتك فاطمة فهل تزوجني يارسول الله ؟

فرد عليه رسول الله ﷺ رداً يحمل تنفيذ طلبه على وجه السرعة وكأنه كان ينتظره منذ فترة طويلة لأن زواج عليّ من فاطمة أمر شغل باله طوال هذه الفترة . .

سَـأَلَـهُ : « هَـلْ عِـنْـدَكَ شَىءٌ ، يـا عَلِيٌّ ؟ » .
فَـرَدَّ عَلَيْـهِ عَلِيٌّ كَـرَّمَ اللهُ وَجْـهَـهِ :
(لَايـا رَسُـولَ اللهِ ، وَاللهِ ما يَخْـفَى عَلَيْكَ حالِى ، وَلَا شَىْءٌ مِنْ أَمْـرِى ، غَـيْـرَ سَـيْـفِى وَنـاضِحِى) .
قـالَ سَـيِّدُنـا رَسُـولُ اللهِ ﷺ :
« فَـأَيْـنَ دِرْعُـكَ الَّـتِى أَعْطَـيْـتُـكَ يَـوْمَ كَـذا ؟ » .

قال :

تقصد درعي الحطمية (الدرع التي تحطم السيوف) ؟ . . هى عندي يارسول الله

فأمره أن يعطي الزهراء إياها . . ونفذ الإمام عليّ أمر

سيدنا رسول الله ﷺ ببيع الدرع ليكون ثمنها صداقاً للزهراء رضى الله عنها وأرضاها .

تقول رواية : إن الذي اشترى الدرع هو سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه بأربعمائة وسبعين درهماً نقدها سيدنا علياً كرّم الله وجهه لتصبح مهراً للزهراء . وتم الزواج عقب غزوة بدر بشهرين في السنة الثانية من الهجرة المباركة .

جهاز فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين

لقد اهتم كثير من الباحثين بإحصآت مفردات جهاز منزل سيدة نساء العالمين ومنهم أستاذنا عباس محمود العقاد رحمه الله الذي استطاع أن يحصيه في :

١ ـ سرير مشروط .
٢ ـ وسادة من أدم (جلد) حشوها ليف .
٣ ـ نورة (إناء يغسل فيه) .
٤ ـ سقاء .
٥ ـ منخل .
٦ ـ منشفة .
٧ ـ قدح (كوز) ورحى (من شقتين) .
٨ ـ جرتان .

ولم يزد على مفردات هذه القائمة أحد من الباحثين لأنها منقولة عن روايات وثيقة (فاطمة الزهراء والفاطميون) عباس محمود العقاد (نهضة مصر للطباعة والنشر) ص ١٨ .

هذا هو البيت الذي أعد لاستقبال أهل بيت النبى صلى الله تعالى عليه وعليهم وعلى الآل والأصحاب ومن تبعهم إلى يوم الدين .

وهذا هو الجهاز الذي جهزت به سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ . (!!!)

وبالرغم من أنها الهاشمية نسباً ونسب هاشم أوسط النسب في قريش ، وقريش أوسط النسب في العرب ، إلا أنها رضيت بهذا المتاع القليل ، وسبب رضاها يكمن في أنها بنت النبى محمد ﷺ الذي رفع الله مقامه فوق كل مقام . فهى به عليه الصلاة والسلام عالية القدر ، رفيعة الشأن ، سامية المكان . فما كان للذهب أو للماس أن يرفعها ، بعد أن أسبغ الله نعمة الإسلام ونعمة النسب إلى أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ ورفعها الله بذلك مكاناً علياً .

وماكان للزهراء وهذا شأنها أن تنظر إلى متاع الحياة الدنيا ، وماكان لها تزيّن دارها في الدنيا بناعم الرياش ،

ووثير الفراش ولديها اليقين أنها تغادرها بعد زمن قصير ، إلى دار الزينة التي تزينها بصالح الأعمال ، وتقدم لها هي المهر من الخشوع والخضوع لمراد الله ، ذلك لأنها تملك وجداناً مضيئاً زاده نوراً ما رأته من والدها العظيم عليه الصلاة والسلام من القناعة والزهد اللذين سطعا على صفحة حياته الشريفة طيلة هذه الحياة . ويضيئان الطريق للسالكين .

وإن صورة من صور هذا الزهد وهذه القناعة تعلو على سطح الذاكرة الآن ، وتبرز للعيان ، وتلقى أضواءها وتشع أضواءها على بيت أمّ أبيها رضى الله عنها فيدرك العقل على الفوز أن موقفها من هذا المتاع القليل وموقف أبيها يتجلى في هذه الصورة قريبان قرابة نسب وشيج .

هذه الصورة التي رسمتها خطوط القدر عندما هجر زوجاته أمهات المؤمنين رضى الله عنهن شهراً حاول سيدنا عمر بن الخطاب الصلح بين حبيبه المصطفى ﷺ وهؤلاء الزوجات . وعندما دخل عليه الحجرة وجد الحصيرة قد تركت أثراً على جنبه الشريف ، ووجد أدماً (جلد شاة) معلقاً على الحائط وأثار ما رآه شجناً في نفسه فبكى ، فَسأَلَهُ سَيِّدُنا رَسُولُ اللهِ ﷺ :

« ما يُبْكِيكَ ، يا ٱبْنَ الْخَطَّابِ ؟ »

- فَقالَ عُمَرُ : (يارَسُولَ اللهِ ، إِنَّ كِسرَى وَقَيْصَرَ يَحْيانِ فِى رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ : فادْعُ اللهَ - يا رَسُولَ اللهِ - أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى أُمَّتِكَ؛ فَإِنَّ فارِسَ والرُّومُ لايَعْبُدونَ اللهَ .. أَمَّا أُمَّتُكَ ، فَإِنَّهُمْ يَعْبُدونَهُ » .

فاسْتَوى سَيِّدُنا رَسُولُ اللهِ ﷺ جالِسًا ، وَقالَ :

« أَفِى شَكٍّ أَنْتَ يا ٱبْنَ الْخَطَّابِ ؟ ! أُولَـٰئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّباتُهُمْ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا . » فَقالَ عُمَرُ: (أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ . اِسْتَغْفِرْلِى ، يا رَسُولَ اللهِ ..

(رواه الإمام البخاري والإمام مسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري ، ويحيى بن سعيد الأنصاري . عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم أجمعين) .

وصورة أخرى تعمق الزهد في وجدان كل مسلم ويزداد تأثيرها في قلب الزهراء ابنته الحبيبة . ما حكى عنه ﷺ ..

روى أن الجبال راودته ﷺ أن تكون ذهباً يمتلكه ثروة طائلة : ولكنه أشاح عنها بوجهه وعزم عزمة نبوية محمدية أن يجوع يوماً فيصبر ويشبع يوماً فيشكر . فهى لا تطلب لنفسها ما زهد فيه أبوها وهى أم أبيها . صلى الله عليه وعليهم وسلم أجمعين .

إنها تتابع حياة أبيها ساعة ساعة ودقيقة دقيقة ، وتتابع سلوكه الشريف وتصرفاته كل لحظة من نهار أو ليل ، فلم

تجده لحظة واحدة حريصاً على التنعم أو التفكه ، أو الرفاهية ، وقد عاشت معه أياماً وليالي ، كان يسأل أهل بيته عن الطعام فإن وجد القليل منه طعمه وحمد الله وشكره وإن لم يجد نوى الصيام ، ولم يحتج ولم يصخب .. فتشبعت الزهراء رضي الله عنها بهذه الأخلاق الكريمة وأصبحت هذه الأخلاق جوهر سلوكها ودافع حركة حياتها .

وقد رضاها كل ذلك على ما أعد لها من جهاز بيتها . تستعين به على خدمة هذا البيت العامر الذي تخرّج في مدرسته أعظم الرجال ، وأعظم النساء .. الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم عليهم جميعاً وعلى جدهم أفضل الصلوات وأتم السلام .

الزفاف الطاهر العفيف

لقد سبق وعد سيدنا رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه أن فاطمة له وقد آن الأوان أن يفي بوعده وأن يزوجه فاطمة الزهراء .. وأشرقت شمس السعادة على جبهة عليّ تضيء له الدنيا والآخرة معاً في لحظة من لحظات الجمع .. جمع عناصر الخير الذي يعم الأرض ، والفرح الذي يعم السماء .. لحظة من عمر الزمان يسعد بها ويستضيء بها الليل ، ويفرح النهار .. وتنعم البشرية بوعد من الله أن تطلع من هذا البيت النبوى شموس الهداية الربانية ، ومصابيح

العناية الإلهية ، ومرايا الأنوار القدسية ، وهم الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم عليهم الصلاة والسلام .

وحانت اللحظة التي حملت للناس في الأرض والملائكة في السماء بشرى الزواج السعيد ، والوعد الجميل ، حكى عنها خادم سيدنا رسول الله ﷺ أنس بن مالك فقال :

قَالَ لِى رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنْطَلِقْ . وَادْعُ لِى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمانَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَبِعِدَّتِهِمْ مِنَ الأَنْصارِ . » قَالَ : فَدَعَوْتُهُمْ .. فَلَمَّا أَخَذُوا مَجالِسَهُمْ قَالَ ﷺ : « اَلْحَمْدُ للهِ الْمَحْمُودِ بِنِعْمَتِهِ ، الْمَعْبُودِ بِقُدْرَتِهِ ، الْمُطَاعِ لِسُلْطانِهِ ، الْمَهْرُوبِ إِلَيْهِ مِنْ عَذابِهِ ، النَّافِذِ أَمْرُهُ فِى أَرْضِهِ وَسَمائِهِ ، الَّذِى خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ ، وَسَيَّرَهُمْ بِأَحْكامِهِ ، وَأَعَزَّهُمْ بِدِينِهِ ، وَأَكْرَمَهُمْ بِنَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ » .

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وأمراً مفترضاً ، وحكماً عادلاً ، وخيراً جامعاً ، أوشج بهما الأرحام وألزمها الأنام . فقال الله عز وجل : الآية ٥٤ :

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ (الفرقان)

وأمر الله يجري إلى قضائه وقضاؤه يجري إلى قدره :

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الرعد)

ثم إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من عليّ وأشهدكم أنّي زوجت فاطمة من عليّ ، على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما ، وأطاب نسلهما . وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

قال أنس : وكان عليّ غائباً في حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه فيها . ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا وقال : يا عليّ ! ! إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة ، وإني زوجتكما على أربعمائة مثقال فضة ، فقال عليّ : رضيت يارسول الله ! ! ثم إن علياً خرّ ساجداً شكراً لله ، فلما رفع رأسه

قالَ الرَّسُولُ ﷺ: « بارَكَ اللهُ لَكُما ، وَعَلَيْكُما ، وَأَسْعَدَ جَدَّكُما ، وَأَخْرَجَ مِنْكُما الْكَثِيرَ الطَّيِّبَ . »

قال أنس : « والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب » .

يقول أستاذنا العقاد في كتابه (فاطمة الزهراء والفاطميون) ص٢٠ مايلي :

« ومن المرجّح جداً أن الزهراء قد استشيرت في زواجها على عادة النبي ﷺ في تزويج كل بنت من بناته كما جاء في مسند ابن حنبل . فيقول لها : فلان يذكرك فإن سكتت أمضى الزواج ، وإن نقرت الستر علم أنها تأباه ، وفي زواج الزهراء قال لها : يا فاطمة ! إن علياً يذكرك . فسكتت . .

وفي روايات أخرى أنه وجدها باكية ، فذاك حيث

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مالَكِ تَبْكِينَ ، يا فاطِمَةُ !! فَواللهِ لَقَدْ أَنْكَحْتُكِ أَكْثَرَهُمْ عِلْمًا ، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا ، وَأَوَّلَهُمْ سِلْمًا . »

هذا هو منهج سيدنا رسول الله ﷺ في زواج بناته ، فهو عليه الصلاة والسلام يعرض عليها اسم من جاء يطلب يدها ، فإذا صادف هذا الشخص الراغب في زواجها قبولاً عندها سكتت فعرف موافقتها من السكوت ، لأن سكوتها تعبير عن قبولها ، وإن لم يصادف قبولاً عندها نقرت بإصبعها ستر حجرتها فيتلقى سيدنا رسول الله ﷺ هذه النقرات على أنها تعبير عن رفض مؤدب من بنته .

وفي حالة سيدتنا الزهراء خاطبها النبي قائلاً :

« يا فاطِمَةُ !! إِنَّ عَلِيًّا يَذْكُرُكِ . » فَسَكَتَتْ .. ثُمَّ بَكَتْ ، فَقالَ لَها : « مالَكِ تَبْكِينَ ، يا فاطِمَةُ ؟ ! فَوَاللهِ ، لَقَدْ أَنْكَحْتُكِ أَكْثَرَهُمْ عِلْمًا ، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا ، وَأَوَّلَهُمْ سِلْمًا »..

وتفســير بكائهـا رضوان الله عليـهـا لا يخـرج عن تداخل مشاعرها ، فهى فرحت بـأن اختيار علـيّ لهـا قـد صـادف قبولاً عند أبيـهـا ، وأمـا أسبـاب بكائها فـهى كثيـرة وكلهـا أسبـاب جليلة عظيمـة ، تفعـم قلوب أصحابها .

أما السبب الأول:

فهـو غيـاب أمهـا وأم المؤمنين سيدتنا خديجة الكبرى التي كـانت تعـوّدت منهـا على الرفق والحب ، وكـان قلبـهـا ينبـوع حنان تنعم بـه الزهراء ، في الصباح وفي المساء .

ولاشـك في أن وجودها إلى جانبها في هـذه الظروف كان سيسعدها .. ويملأ عليهـا الدنيـا أنسـاً وفرحـاً وسعادة .

وأما السبب الثاني:

فإنه يرجع إلى أنهـا كـانت قـد تعودت على حضن أبيـهـا الذي دأب على إسباغ الحنان عليـها وشمولها بالعناية المضاعفة التي عـوضتـهـا عن حنان أمهـا وعنايتـهـا لهـا ، وظـل يواليـهـا بالعطف الذي غمـرها بـه ليغسل قلبـهـا من الحـزن الذي لـفّ على قلبها ضفـائره وفجّـر الدموع في عينيـها حتى إنهـا لـم تُـر في يوم غـيـر باكيـة يفـيض الحـزن على وجـهـهـا .. والقـارىء لسيرتهـا بإمعـان النظـر واستيعاب الوجدان يدرك على الفـور أن هـذا الحـزن صاحبها منـذ رأت والدهـا الحبيب ﷺ ساجداً لله عـز وجـل في البـيـت الحـرام وقـد تجـرّأ أعـداء الله وأعــداؤه

وأعداء الدين فألقوا على جسده الشريف سلا الناقة وأقذارها في غير أدب ولا رحمة .. وعندما احتجت على هذا السلوك الهمجي .. تطاول عليها عدو الله أبو جهل فصفعها على وجهها وهى السيدة في قومها . فباء بغضب الله ومعه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين حتى تقوم الساعة .

وهى عندما تأملت هذا الاضطهاد الذي زاوله هؤلاء الكفار وصبحوا به النبى ﷺ والضعفاء من المؤمنين معه وأمسوهم ، لم تجد له سبباً غير الحقد الأسود الذي نسج خيوطه السوداء في قلوبهم ، إذ أن والدها لم يطلب عداءهم بل حمل إليهم الهدى على طبق من النور يرغبهم في الإسلام الذي يحمل لهم العزة في الدنيا والسعادة في الآخرة .. وهم يعرضون عنه ولا يكتفون بذلك بل يلحقون الأذى به وبأصحابه الذين آمنوا به من الضعفاء .

هذا الحزن ليس غريباً عنها وإنما هو مستمد من قلب سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم فهو الذي قال فيما نقله إلينا الإمام الفضيل ابن عياض في كتابه الشفا رواية عن الإمام عليّ كرّم الله وجهه ورضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال :

« الْمَعْـرِفَةُ: رَأْسُ مالِى ، وَالْعقلُ : أَصلُ دِيـنِى ، وَالْحُبُّ : أَسـاسِى ، وَالشَّوْقُ : مَرْكَبِى ، وَذِكْـرُ اللهِ : أَنِـيسِى ، وَالـثِّقَـةُ :

كَـنْـزِي ، والْحُـزْنُ : رَفِـيـقِي ، وَالْعِلْمُ : سِـلَاحِي ، وَالصَّـبْـرُ : رِدائِي ، والرِّضَى: غَـنِـيمَـتِي ، وَالْعَجْـزُ : فَخْـرِي ، وَالزُّهْدُ :

(كتاب الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى للإمام الفضيل ابن عياض - الجزء الأول ص١١٣) .

إن الزهراء رضى الله عنها حظيت بصحبة أبيها العظيم ﷺ من هذا بعض شأنه ، وارتفعت بهذه الصحبة إلى أعلى السموات .. فانمحت من صدرها لغة الأرض ، ولم تجر على لسانها غير لغة السماء .. وحق لها ذلك فإن من ربيت على هذه المثل ، وصعدت إلى هذه الآفاق العليا ، فإنها من الصعب عليها أن تنزل إلى الأرض لتتكلم لغة أهل الأرض ، ومن الصعب على أهل الأرض أن يفقهوا لغة السماء .

نقول هذا الكلام لمن حشرج صدورهم سؤال .. لماذا بكت الزهراء عندما تلقت نبأ خطبتها لأبي الحسن الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضى الله عنه وأرضاه ؟

لقد سعدت هذه السيدة الجليلة بصحبة والدها فترة طويلة ، شربت من رضاب هذه المثل التي ذكرها في حديثه إلى الإمام عليّ رضى الله عنه ، وشهدت الوحى يحمل آيات الله تترى في منزل أبيها الذي نشأت فيه ، هذا البيت الذي تفرّد باستقبال أكرم الضيوف من ملائكة الرحمن ، ورددت

جنباته كلمات القرآن الكريم تتنزل على قلب سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، فيتحرك بهن لسانه الشريف فتكون هي أول من ينهل من رحيقه الصافي يتخلل كل ذرة من كيانها ، ويفيض هذا الرحيق على جوارحها فيملأ دنياها طيبه وذكاؤه ، وتنشغل هي بدرره الغالية تطوى عليها قلبها كنزاً يغنيها عن كل ذهب الدنيا وماسها وكل زينتها وبهرجها .. فأني لقلبها أن ينشغل بغير ما استودعه الله سبحانه وتعالى فيه من كنوز علمه وحكمته ؟! وهو الذي قال في سورة البقرة :

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

هذا البيت الذي نشأت فيه سيدة نساء العالمين ونزل فيه القرآن على والدها شغل بال غيرها في كافة العصور والأزمان .

هذه الدار التي أحالت أنوار القرآن القدسية آجرها إلى سبائك من النور ، وأحالت ترابها إلى عنبر ، وهواءها إلى عطر فياح .

قال فيها القاضي عياض ، في كتابه الشفاء ، الجزء الثاني ص ٤٩ مايأتي :

« وجدير لمواطن عمرت بالوحي والتنزيل ، وتردد بها جبريل وميكائيل ، وعرجّت منها الملائكة والروح ، وضحت عرصاتها بالتقديس والتسبيح ، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ، وانتشر عنها من دين الله ما انتشر ، مدارس آيات ، ومساجد صلوات ، ومشاهد الفضائل والخيرات ، ومعاهد البراهين والمعجزات ، ومناسك الدين ، ومشاعر المسلمين ، ومواقف سيد المرسلين ، ومتبوأ خاتم النبيين .. حيث انفجرت النبوة ، وأين فاض عبابها ، ومواطن طويت فيها الرسالة ، وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها أن تعظم عرصاتها ، وتتتنسّم نفحاتها ، وتقبل ربوعها وجدراتها :

يا دار خير المرسلين ومن به
هدى الأنام وخص بالآيات

عندي لأجلك لوعة وصبابة
وتشوق متوقد .. الجمرات

وعليّ عهد إن ملأت محاجري
من تلكم الجدرات .. والعرصات

لأعفرن مصون شيبي بينها
من كثرة التقبيل .. والرشفات

لولا العوادي والأعادي زرتها
أبداً ولو سحبا على .. الوجنات

لكن سأهدي من حفيل تحيتي

لقطين تلك الدار .. والحجرات

أزكى من المسك المعتق نفحة

تغشاه بالآصال .. والبكرات

وتخصه بزواكي الصلوات

ونوامي التسليم .. والبركات

أجبني بربك أيها القارىء الكريم عن هذا السؤال .. هل لمن نشأت في هذه الدار ، وغمرها حنان صاحبها .. وتلألأت أنوار الوحى على جدرانها أمام عينيها ، وفاح عبير القرآن بين جدرانها فتنفسته ليملأ صدرها .. هل تفرح عند فراقها لهذه الدار أم تبكي عليها ؟!!!

إذا كان الإمام الفضيل ابن عياض قد حنّ هذا الحنين ، وأنّ هذا الأنين ، وبث هذه الأشواق لهذه الدار بعد خمسمائة عام على هذه الصورة التي تهز القلوب هزاً ، وتثير في الوجدان جيشان الشجن ، وثورة الحنين ، ولوعة الذكرى ، فما بالكم بمن عاشت فيها حتى سكنت قلبها واستبدت بفؤادها ؟

ألا تستحق هذه الدار من سيدة نساء العالمين أن تسكب لفراقها العبرات ؟! حتى لو كان فراقها إلى دار على فتى الإسلام وفارسه الشجاع ، وفقيه الدين وعالمه . لها أن تبكي وتسكب العبرات .!!!

على كل حال لقد عرفنا بعض الشيء عن الزوجة .. فهيا بنا نعرف بعض الشيء عن الزوج ..

إنه عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . وهذا نسبه من جهة أبيه ، أما من جهة أمه فأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بم عبد مناف وهى أول هاشمية ولدت هاشمياً .

جاء في سير أعلام النبلاء نبأ عنها يقول :

« لما ماتت فاطمة أم عليّ ألبسها النبى ﷺ قميصه ، واضطجع معها في قبرها ، فقالوا : ما رأيناك يارسول الله صنعت هذا !! فقال : إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ لي منها . إنما ألبستها قميصي لتكسي من حلل الجنة ، واضطجعت معها ليهوّن عليها » .

(سير أعلام النبلاء .. لشمس الدين الذهبي جـ٢ ـ طبعة بيروت ـ مؤسسة الرسالة) .

نقرأ بعض مناقبه في القرآن الكريم في قوله عز من قائل في سورة التوبة الآيات : من ١٨ - ٢٢ :

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ

ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

جاء في تفسير الإمام الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآيات هذا النبأ :

قال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرني ابن وهب ، أخبرني ابن لهيعة عن أبي صخرة قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يقول :

« افتخر طلحة بن شيبة من بني عبد الدار وعباس بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب :

فقال طلحة : أنا صاحب البيت معي مفتاحه ولو أشاء بتّ فيه ، وقال العباس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت في المسجد . فقال عليّ رضى الله عنه :

ما أدري ما تقولان ، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس ، وأنا صاحب الجهاد ، فأنزل الله عز وجل :

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (١٩ التوبة)

ففي هذا المقام القرآني ذكر الله سبحانه وتعالى المصب الذي تصب فيه جميع مناقب الإمام عليّ كرّم الله وجهه ورضى الله عنه وأرضاه ، وفي استطاعتك أيها القارىء الكريم أن تعاين هذه المناقب من قراءتك لهذه الآيات قراءة متأنية بروحك وقلبك وإعمال فكرك . فستظهر لك مقومات شخصيته وعناصر مواهبه . تشع أضواؤها على صفحات الدرر المكنونة في حروف الكلمات ، وعلى مشارق هذه الآيات التي زكّى بها الله عبده علياً بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضى الله عنه وأرضاه .

وليست هذه الآيات وحدها التي نوّهت بمقام أمير المؤمنين ، وسيف الله الغالب ، وإمام الدين وعالمه .. وإنما نزلت في حقه آيات أخرى كثيرة .. والسبب في اكتفائي بهذه الآيات هى أنها شملت في وصفها كل ما تمتع به سيدنا الإمام من شرف المناقب ومكارم الأخلاق .

وأما ما ورد من أحاديث شريفة تكشف عن كنز الصفات الكريمة ، والخلال النبيلة ، والمناقب الشريفة فنكتفي بحديث

واحد منها جمعها كلها في كلماته حيث قال سيدنا رسول الله ﷺ

مُخاطِبًا إِيَّاهُ:

« أَنْتَ مِنِّي: بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَى ؛ وَلٰكِنْ لَا نَبِيَّ بَعْدِي » ..

فكلمات هذا الحديث قد استقرت فيها كنوز العلم ، وذخائر الحكمة ، وكمالات الإيمان ، وأنوار المعرفة ، وأضواء الفصاحة ، وحسن البيان ، وأسباب السعادة في الدنيا والآخرة .

وأما شهادة الصحابة الكرام بما منح به الإمام عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه وكرّم الله وجهه فيحكيها صحابي جليل أمام الصحابي معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه فقال له حين سأله عن سيدنا الامام رضى الله عنه .

أما هذا الصحابي الجليل فهو ضرار بن ضمرة الكناني عندما قال له صف علياً فقال :

« كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن

الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا ، يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه وكان مع تقربه إلينا ، وقربه منا ، لا نكلمه هيبة له ، فإن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يميل في محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، فكأني أسمعه الآن وهو يقول :

ياربنا (!!!) ياربنا (!!!) يتضرع إليه - ثم يقول للدنيا إلي تغررت ، إلي تشوقت ، هيهات هيهات !!! غرّي غيري ، قد أبنتك ثلاثاً ، فعمرك قصير ومجلسك حقير ، وخطرك يسير ، آه !! آه !!! من قلة الزاد ، وبعد السفر !!! ووحشة الطريق » .

فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها ، وجعل ينشفها بكمّه ، وقد اختنق القوم بالبكاء فقال : كذا كان أبو الحسن رحمه الله !!!

كيف وجدك عليه يا ضرار .. قال :

وجد من ذبح واحدها في حجرها . لا ترقأ رمقتها ولا يسكن حزنها . ثم قام فخرج .

جاء هذا الوصف في كتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني المجلد الأول ص ٨٤ ـ ٨٥ .

قال أبو نعيم الأصفهاني في حق الإمام عليّ كرّم الله وجهه ورضى الله عنه في الكتاب المذكور :

« وسيد القوم ، محب المشهود ، ومحبوب المعبود ، باب مدينة العلم والعلوم ، ورأس المخاطبات ، ومستنبط الأشارات ، راية المهتدين ، ونور المطيعين ، وولى المتقين، وإمام العادلين ، أقدمهم إجابة وإيماناً ، وأقومهم قضية وإيقاناً ، وأعظمهم حلماً ، وأوفرهم علماً ، عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه . قدوة المتقين وزينة العارفين ، المنبيء عن حقائق التوحيد ، المشير إلى لوامع علم التقرير ، صاحب القلب العقول ، واللسان السؤول ، والأذن الواعي ، والعهد الوافي . فقّاء عيون الفتن ، ووقى من الفنون المحن . فدفع الناكثين ، ووضع القاسطين ، ودمغ المارقين ، الأخيشن في دين الله ، الممسوس في ذات الله » .

هذا بعض ما تميز به إمامنا العظيم سيدنا عليّ بن أبي طالب مما ذكره الله في القرآن الكريم ، وما ذكره سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم جاء على لسان الصحابة الكرام والأئمة الأعلام ... والعلماء والمحدثين فأرونا مثله في العالمين إن كنتم صادقين !!!

حياتها في منزلها :

لعلك أيها القارىء الكريم قد قرأت معي خطبة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يوم زفاف سيدتنا الزهراء رضى الله عنها . ومن قراءتك لها علمت أن زواجها من الإمام عليّ كرّم الله وجهه ورضى الله عنهما كان بأمر من الله عز وجل . أذاعه عليه الصلاة والسلام في مجلس العقد الذي شهده كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وهم سادتنا الكرام أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة ، والزبير ، وعدتهم من الأنصار رضى الله عنهم أجمعين ، وهذا الأمر الإلهي صادف إذعاناً بقبول ورضى من الزوجين مصحوب بفرح وسرور حملتهما دموع الحبيبة الزهراء .

ولعلك تذكر معي أنها رضوان الله عليها ، قد أحاطت والدها العظيم بذراعى الحنان والعطف ، وعينى البرّ والصلة بعد وفاة أمها وأم المؤمنين خديجة الكبرى وقامت على خدمة أبيها على قدم وساق ، وطوعت لهذه المهمة صحتها وعافيتها ، وحشدت لها كل قواها وجندت لها كل ملكاتها ، وما استودعها الله من عواطف نبيلة .. كل ذلك تخدم به أباها ، وتقبل عليه بكل همتها .. تغمره بالحب ، وتعد له

الطعـام وتؤدي لـه كل واجبـات البنت البـارة لأبيـهـا الـرحـيم فـاسـتـحـقـت بذلك أن ينـاديهـا والدهـا « يـا أُمَّ أَبِـيـهـا » . لأنهـا في كل ذلك كـانت تحـاول أن تمـلأ فـراغ أمهـا التي آثـرت مـا عند الله فلبت نـداءه الـكريم وانتقلت إلى الرفيـق الأعـلى من الجنـة (!!!) .

فـلا تتـعـجب يا أخي القـارىء إذا رأيتـهـا في منزل الإمـام علـيّ بن أبي طالب رضى الله عنـه تعيش نفس العيشـة وتواصل نفس الخدمة بفـارق جليل هـو حقوق الزوج والولـد .. ويالهـا من رسالة عظمـى ، وأمانة جـلّى . تحملها سيدة نسـاء العالمين ، وتؤديهـا أشـرف مـا عـرفت الإنسـانيـة من أداء .. وتعطى بـهـا الدين والإنسانية أنبـل ما يكون العطـاء ... !!!

الـــدار :

نسـتـأذن أمـيـر المؤمنين سـيف الله الغـالب ، فـقـيـه الدين وعالمه النّحرير علياً بن أبي طالب ، ونسـتأذن سيدتنا الزهراء ، فاطمـة البتول رضى الله عنـهما في دخـول دارهما .. وهـذا أدب الإسلام .. ولـولا حاجتنا وحاجـة المسلمين ومصلحة المسلمات ما أزعجنا الـدار ، وما أزعجنا أصحاب الـدار .

وعـذرنا أنهـم قـد اصطفـاهم رب العـزة للدين واصطفى الدين لهم ، فجعلهم مصابيح الهدى ، وأعلام التقى ..

فمن هـذه الدار انبجس نـور الإخـلاص لله ورسوله وتحققت على أرض الوجود فضائل الإسلام ، وبرزت للكون كله حقائق الإيمـان ، وعـرفت البـشـرية الطريق إلى الله ، وأدركت الإنسـانيـة كيف يبنى الإسلام رجـالاً مكنهم الله من أنفسهم ، فتـمكنوا هـم من الزمان ومن المكان وأخضعوا مافي أيديهم وما حولهم ، وما يتعرفون عليـه ، وما يتعاملون معه ليقول قولهم ، ويفعل فعلهم ، ليـردد مـعهم أنشودتـهم الخالدة على مـر الزمان « لا إلـه إلا الله مـحـمـد رسـول الله صلى الله تعـالى عليـه وعلى آلـه وصـحبـه وسلم » . غـسلوا بأنـوارها الإنسـانيـة من رجـس الشـيطان ، وطهـروا بأضـوائهـا الحـيـاة من نجـاسـة الأوثـان ، وسكبـوا أسرارها في عـمق أعـماق الإنسـان ، وخلّصوه بهـا من شـوائب الأنانيـة ، وأزاحـوا عنـه أوحـال الـذنوب والمعـاصي ، وحـسـروا عن فطرتـه تراب الشكوك والأوهام ، فـتـلألأت في قلبـه أنوارها بـالتوحـيـد ، وسطعت في وجدانه شـمس الحب في الله . . فتـفجرت فيـه ينابيع الحكمة وعـلا هديرها على لسـانه فتحرّك صارخاً : لا إلـه إلا أنت سبـحانـك إنّي كنت من الظالمين . . واستحقـوا هـم لذلك تكريم الله لهـم ، وذكـره لفضـائلهم ، وتزكيتـه لأعـمـالهم ، ومواكب الإسـلام تـردد كـلمـاته في كل لمحة من لمحـات اليوم ، وكل لحظة من لحظات الزمـان -

الآية ٤١ من سورة الحج) .

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

فمعذرة إذا دخلنا دارهم ، ومعذرة إذا اطلعنا وأطلعنا الناس معنا على محتويات هذه الدار من متاع .. لنتعلم ، ولنأخذ الدرس والعبرة لنتعلم ما نحن في أشد الحاجة إليه من علم سيدنا رسول الله ﷺ ، ولننهل ما نحن في مسيس الحاجة إليه من خُلُقه العظيم ، ولنشرف بالتزود ببعض هذا العلم ، ولنسعد ببعض هذا الخلق العظيم ، ونستعين بكل منهما على مواجهة المادية التي تسلطت علينا وعلى الناس في هذا الزمان .

وأظن أن هذا حق لنا يقرّه القاضي عليّ كرّم الله وجهه وتسمح به سيدتنا الزهراء ، وهذا الحق هو الذي يضع يدينا على باب هذه الدار نطرقه فيؤذن لنا ... فهم أولى الناس بإعطاء الحق لذويه . فالواجب علينا عند دخول الدار أن نبدأهم بالتحية التي حيّاهم بها الله سبحانه وتعالى ، وحيّاهم بها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

(الآية ٣٣ ـ سورة الأحزاب) .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

ندخلها ونحن نردد الدعاء الوارد في القرآن الكريم في الآية رقم (١٠) من سورة الحشر :

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

إن الدار كانت صغيرة ، وكانت مغلقة من جهة سيدنا رسول الله ﷺ ، وإنه عليه الصلاة والسلام كان شديد الحدب على الزهراء ، يغمرها بحنانه وعطفه ، ودائم المودة لها والسؤال عنها ، حتى إنه لم يطق بعدها عنه ، وأراد أن يطمئن عليها في الصباح وفي المساء وفي كل أوقات الصلاة وفاتحها في ذلك .. فقالت له :

ـ كلّم حارثة بن النعمان أن يتحول عنّي !! فقال لها ..

ـ قد تحوّل حارثة بن النعمان عنّا حتى استحييت منه ، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبى فقال « يارسول الله !! إنه بلغني أنك تحوّل فاطمة إليك ، وهذه منازلي ، وهى أسقب بيوت بني النجار بك ، وإنما أنا ومالي لله ولرسوله ، والله

فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « صَـدَقْتَ ، بـارَكَ اللهُ عَـلَـيْـكَ ! »
فَـحَـوَّلَـهـا رَسُــولُ اللهِ إِلَى بَـيْـتِ حارِثَـةَ .

يارسول الله للمـال الذي تأخذه مني أحـب إليّ من الذي تـدع .

نقـل إلينـا هـذا الوصـف أستاذنـا عباس محمـود العقـاد في كتابه (فاطمة الزهراء والفاطميون ص٢٦) .

ونقل أيضاً عن السمهوري في كتابه عن أخبار المصطفى : « إن بيت فاطمة رضى الله عنها في الزَّوْر الذي في القبـر بينـه وبين بيت النبى ﷺ خـوخـة . . وكـانت فيـه كـوّه إلى بيت عـائشـة رضى الله عنهـا ، فكان رسول الله ﷺ إذا قام اطّلـع من الكـوّه إلى فاطمة فعـلم خبرهم ، وأن فاطمة رضى الله عنهـا قالت لعـلى :

إن ابني أمسـيا عليلين فـلو نظرت لنـا أدمـا نستصبح بـه . فخرج عـليّ إلى السوق فاشترى لهم أدمـا وجاء بـه إلى فـاطمة . . فاستصبحت . . فأبصرت عائشـة المصباح عندهم في جـوف الليـل ـ وذكـر كـلامـاً ـ وقـع بيـنـهـمـا ـ فلمـا أصبـحـوا سـألت فاطمة النبى ﷺ أن يسـد الكـوّه فسدّها .

إلى أن قال : ما خلاصته من جملة أسانيد

« أَنَّـهُ ﷺ كانَ يَـأْتِى بـابَ عَلِىٍّ وَفـاطِـمَـةَ وَحَسَنٍ وَحُسَـيْنٍ كُلَّ يَـوْمٍ عِـنْـدَ صَلاةِ الصُّـبْـحِ ، حَـتَّى يَـأْخُـذَ بِعُضادَتَىِ الْـبـابِ ، وَيَـقُـولُ :

« اَلسَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » وَيَقُولُ : « الصَّلَاةُ » ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، إِنَّما يُرِيدُ اللهَ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » .

هذا بعض وصف الدار التي أسسها كل من الإمام على والزهراء فاطمة رضى الله عنهما .

وهى مجهزة بمفردات الجهاز التي أحصاها العلماء محصورة في قائمة لا ترضى بها في هذا الزمان فتاة مهما كان فقرها :

حجرة فرشت بالرمل الناعم وفيها :

١ - فراش حشوه ليف .

٢ - وسائد حشوها ليف .

٣ - إهاب شاه (جلد شاه) للجلوس عليه .

٤ - رحى يد (لزوم طحن البر) .

٥ - منخل .

٦ - منشفة .

٧ - قدح (كوز) .

٨ - قربة صغيرة لتبريد الماء .

٩ - حصير .

من هذا المكان المتواضع ، وبهذه المنقولات البسيطة كافحت بنت النبى (صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليماً

كثيرا) كفاحاً مريراً من أجل تحقيق مثلها الأعلى وهو رضا الله سبحانه وتعالى ورضا سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم . وهما يتحققان بنجاحها في أن تقوم بدور الزوجة المخلصة الصالحة التقية النقية :
(آية ٣٤ ـ سورة النساء) .

فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ

وأن تنهض برسالة الأم .. مجتهدة في تربية الأولاد على ما رباها عليه سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وارداً في القرآن الكريم والذكر الحكيم وفي سنّة النبى ﷺ .

وفي دورها الاجتماعي في خدمة مجتمع المسلمين الذي أصبح حقيقة مضيئة يباهي به الله سبحانه وتعالى ملائكة السماء .. بعد أن سهر على أفراده سيدنا رسول الله ﷺ وبذل في صياغته العرق والدموع في الليل وفي النهار ردحاً طويلاً من الزمن .

وكانت في قيامها بهذه الأدوار الثلاثة المثل الأعلى لنساء العالمين ، والقدوة الحسنة للمرأة المسلمة في كل زمان ومكان ، والأسوة الطيبة لكل امرأة شغفها التطلع إلى المعالي ، وشغلها التوثب إلى النهوض ، وشاقها أن تكون رحمة للناس أجمعين .

كلمات لسيدنا رسول الله ﷺ مازال رنينها في أذنيها ، ومازال صداها يتردد على جنبات قلبها الكبير . وهي :

« مالَكِ تَبْكِينَ ، يا فاطِمَةُ !! فَوالله ، لَقَدْ أَنْكَحْتُكِ أَكْثَرَهُمْ عِلْمًا ، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا ، وَأَوَّلَهُم سِلْمًا . »

ومن قبل هذه الكلمات : كلمات أخرى مضيئة بثّها أبوها الحبيب النبي محمد ﷺ في خطبة عقد الزواج فقال :

« إِنَّ اللهَ تَعالَى أَمَرَنِى أَنْ أُزَوِّجَ فاطِمَةَ مِنْ عَلِىٍّ ، وَأُشْهِدُكُمْ أَنِّى زَوَّجْتُ فاطِمَةَ مِنْ عَلِىٍّ » .

وإذن فعقد زواجها من عليّ قد عقده الله من فوق السموات السبع قبل أن يعقده النبى ﷺ على الأرض . وعلى ذلك فهذا العقد مقدس سداه حب الله سبحانه وتعالى ولُحمته حب سيدنا رسول الله ﷺ لزوجها عليّ وتنفيذه التزام يشغل ذمتها وضميرها ، ويلقي على كاهلها مسئولية عظمى تتحملها وهي بنت النبى محمد ﷺ - وهي راضية مرضية وهادية مهدية ، مهما كلفتها من جهد ، ومهما عانت في تحملها من متاعب .. تهون كلها في مرضاة الله ورسوله ﷺ .

والإمام عليّ فقير المال ، ولكنه غنى بالإسلام .. وهي

رضوان الله عليها نحيلة البدن ، ضعيفة الصحة ولكنها قوية الإيمان .

وخدمة البيت مساهمة منها في إقامته صالحاً لاستقبال أعضاء الأسرة من الأولاد الكرام . . وقد بذلت هذه السيدة الجليلة في هذا الميدان أقصى جهد تبذله أيَة امرأة مكتملة الصحة موفورة العافية . راغبة من وراء ذلك توفير الوقت للإمام عليّ رضى الله عنه لمساعدة أبيها سيدنا رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله هذه المساعدة بالجهاد والاشتراك في السرايا التي يبعث بها سيدنا رسول الله ﷺ للدفاع عن الإسلام وحماية المسلمين .

كانت رضى الله عنها تقوم بطحن الطعام باستعمال الرحى التي تركت أثراً في يديها الشريفتين ، ومازالت كذلك حتى تعبت ، وبلغ بها الاجهاد مبلغه . وذات يوم وجدها الامام عليّ تدير الرحى حتى ظهرت عليها أمارات الإعياء فطلب منها أن تذهب إلى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أن يمنحها خادمة تساعدها على القيام بواجباتها المنزلية . فلما مثلت بين يديه عقد لسانها الحياء منه فلم تبدر منها بنت شفه فسألها :

- ما بك يا بنيّة ؟ فقالت :

- جِئْتُ أُسَلِّمُ عَلَيْكَ (!!!) .

وانصرفت من عند أبيها يجللها الحياء .

فلما أتت زوجها الإمام ، وعلم أن الحياء منعها صحبها إلى سيدنا رسول الله ﷺ وتولى هو شرح طلبها .. موضحاً سوء حالتها الصحية وحاجتها إلى خادم من هؤلاء الأسرى الذين تمكنت سرية من أسرهم فكان رد النبى ﷺ :

« لا وَاللهِ ، لَا أُعْطِيكُما ، وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَتَلَوَّى بُطُونُهُمْ ، وَلَا أَجِدُ ما أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ .. وَلَكِنْ أَبِيعُ وَأُنْفِقُ عَلَيْهِمْ بِالثَّمَنِ .. » .

هذا حكم من أحكام سيدنا رسول الله ﷺ ، وقضاء من قضائه عليه الصلاة والسلام ، فما كان من علىّ وفاطمة رضوان الله عليهما إلا الرضا به ، وقبوله القبول الحسن . وموقفهما هذا يتفق اتفاقاً كاملاً مع قول الحق عز وجل في القرآن العظيم في الآية رقم (٣٦) التي تسطع في سورة الأحزاب :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

ولابد من وقفة نقفها هنا داعين الله عز وجل أن يجلّي لنا الحقيقة في هذه الواقعة لنطعم لذتها ونصيب نعمتها ،

ونأخذ منها العظة والعبرة ونتلقى من علمها ما نصلح به أحوالنا ، ويستقيم به أمرنا ، وما يوثق صلتنا بنبينا ، وما يروى شجرة حبه وحب أهل بيته الكرام في قلوبنا . والله سميع مجيب . وصل اللهم وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أولاً : هنا تبرز مصلحتان ، احداهما خاصة والثانية عامة . فأما الخاصة فهى مصلحة الزهراء في خادم تعينها على القيام بخدمة البيت بعد أن عانت من الضعف ومن آلام يديها من أثر الرّحى ، ومن المعاناة الشديدة في الأعمال المنزلية الأخرى التي تجهدها ، وتكلفها العظيم من المشقة والنصب وهى الرقيقة الجسم الضعيفة البنية .. كل هذا يولّد لها حقاً لا ينكر في أن تتمكن من مواصلة مسيرتها الظافرة في خدمة بيتها الذي هو بيت لجندي شجاع من جنود الإسلام وفرسانه البواسل . وهذه المصلحة تمس شغاف قلب سيدنا رسول الله ﷺ الذي تتربع على عرشه الزهراء أم أبيها .

وأما المصلحة العامة فماثلة في حق أهل الصّفة المؤمنين الذين تركوا أموالهم بمكة وفقدوا وسيلة الرزق في أن يحيوا حياة كريمة يرزقون فيها الرزق الحسن ، ويتقوون بهذا الرزق على عبادة الله ، وقد أنزل الله فيهم القرآن الكريم يتلى إلى يوم الدين حيث يقول في سورة البقرة الآية (٢٧٣) :

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

وهذا الحق الثابت لهذه الفئة من المؤمنين زكّاه الله تزكية متكررة في آيات القرآن الكريم وسيدنا رسول الله ﷺ مسئول عنهم يدبّر لهم أسباب العيش الكريم والحياة المطمئنة ، وأن يدفع عنهم غائلة الجوع والعرى وبهذا يعالج جرحاً نافذاً يتهدد مجتمع المسلمين ، لأن الجوع هو أعمق جرح غائر يستنزف قوى المجتمع ويسرع بالقضاء عليه ، والمعروف أن سيدنا رسول الله ﷺ قد بُعث رحمة للعالمين .

ثانياً : الرسول ﷺ ينفذ أوامر الله سبحانه وتعالى في كل فعل يأتيه ، وهو لا يصدر في أى تصرف عن نفسه وإنما يصدر عن تكليف من الله .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى في حقه ، في الآيتين :

فهو يقوم بتوزيع الغنائم بهدى الله سبحانه وتعالى وبحكمه .

ثالثاً : الرسول ﷺ عندما امتنع عن اعطاء الزهراء خادماً تساعدها إنما كان مستجيباً لطبيعة العدل عنده ، ونبع تصرفه هذا من معين الرحمة في قلبه الذي لا ينضب ، وهو لم يتركها تتلقى صدمة الامتناع جافة وإنما جعل لقراره بالإمتناع مذكرة تفسيرية تشرح حكمه بأناه وصبر وتقول تبريراً لموقفه .

« واللهِ ، لَاأُعْطِيكُما ، وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَتَلَوَّى بُطُونُهُمْ ، وَلَاأَجِدُ ما أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ .. وَلٰكِنْ أَبِيعُ وَأُنْفِقُ عَلَيْهِمْ بِالثَّمَنِ .. » .

هكذا أبان حضرة النبى ﷺ حيثيات قراره بالإمتناع عن تخصيص خادم لفلذة كبده ، حفاظاً على حق فئة من المؤمنين وليس هناك على الأرض من هو أولى بالعدل من أشرف الخلق سيدنا محمد عليه الصلاة وأزكى السلام . وهو الذي وضّح السبيل من بدء الدعوة عندما قال :

« يا فاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، لَاتَسْأَلِينِى شَيْئًا ؛ فَإِنِّى لَاأُغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا . »

لقد كان في وسعه عليه الصلاة وأزكى السلام أن يصدر لها قراراً بأربع من الخدم يعملن في بيتها ليلاً ونهاراً . ولا أحد يعترض عليه بسبب ما تعانيه من ضعف وتعب وإجهاد .

ولكنه وهو الذي وهبه الله مكارم الأخلاق ومنها أخلاق الحكم وأولها العدل قضى في الأمر بالعدل .

ثم حلّى قراره بكلمات علمها وعلم زوجها إياها .. سبحان الله ثلاثاً وثلاثين والحمد لله ثلاثاً وثلاثين والله أكبر ثلاثاً وثلاثين وتكملة المائة بكلمة لا إله إلا الله .. فأصلحت هذه الكلمات نفسيهما وشرحت صدريهما ونفخت فيهما من قوّة الله مااستطاعا بها أن ينهضا بأعباء المنزل وأكثر ..

وهكذا أهل البيت النبوي ، يُسرون دائماً بطاعة الله والامتثال لأوامر سيدنا رسول الله ﷺ ويجدون فيهما راحتهم ومسرتهم لأن فيهما السعادة في الدنيا والسعادة في الآخرة وذلك هو الفوز العظيم .

وبعض مظاهر السعادة فى الآخرة وتهنأ به سيدة نساء العالمين ما يسطع فى هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه سيدنا رسول الله ﷺ :

« إذا كانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ : نادَى مُنادٍ مِنْ وَراءِ الحُجُبِ : [يا أَهْلَ الْجَمْعِ ، غُضُّوا أَبْصارَكُمْ عَنْ فاطِمَةَ : بِنْتِ مُحَمَّدٍ ، حَتّى تَمُرَّ] . »

(رواه الحاكم عن الإمام على كرم الله وجهه وصححه) .

الأم

بينما سيدة نساء العالمين تتقلب في محنة ابتلاها الله سبحانه وتعالى بها ، ولفها بثوبها النادي ليمحص إيمانها ويظهر أصالة معدنها النضاري الخالص ، ألا وهى محاولة زوجها الامام عليّ بن أبي طالب الزواج من بنت أبي جهل عمرو بن هشام وكانت قد أسلمت وحسن إسلامها وخاف أهلها عليها الفتنة ، ولم يجدوا من هو كفء لها إلا عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب ، فعرضوا الأمر على سيدنا رسول الله يستأذنونه في إتمام هذا الزواج فرفض عليه الصلاة والسلام هذا العرض على الفور . ولما حاول عليّ الاقتراب من عرض هذا الموضوع على زوجته الزهراء غضبت غضباً شديداً وبنفس الشدة كان غضب أبيها ﷺ الذي خرج إلى المسجد على حالته من الغضب فقال :

« إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ٱسْتَأْذَنُونِي أَنْ يَنْكِحُوا ٱبْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ : فَلَا آذَنُ لَهُمْ ، ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ ، ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ ، إِلَّا أَنْ يُرِيدَ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ٱبْنَتِي ، وَيَنْكِحَ ٱبْنَتَهُمْ. وَإِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلَالًا ، وَلَا أُحِلُّ حَرامًا . لٰكِنْ ، وَاللهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِنْتَ عَدُوِّ اللهِ أَبَدًا . »

« إِنَّ فاطِمَةَ بِضْعَةٌ مِنِّى ، وَأَنا أَتَخَوَّفُ أَنْ تُفْتَنَ فِى دِينِها . »

عند ذلك ترك عليّ الخطبة ، وانقشعت الزوبعة وعاد الصفاء إلى قلبى الزوجة فاطمة الزهراء والزوج عليّ ، وكانت الزهراء تضم في أحشائها إبنيهما الذي سطع في البيت المتواضع شمساً تضيئه وتغسل أشعتها كدرات الأحزان التي علقت بجدرانه ، وقد سبق مولده إرهاصات روحية سرت أنوارها في رحاب العائلة الكريمة . .

حيث رأت السيدة أم الفضل زوجة سيدنا العباس بن عبد المطلب فيما يرى النائم أن في حجرها بضعة من جسم سيدنا رسول الله ﷺ فحكت رؤياها له فقال لها : خيراً رأيت . . تلد فاطمة غلاماً فترضعيه بلبن قثم ، فولدت فاطمة الحسن فأرضعته بلبن قثم .

أنوار شهر رمضان تتلألأ في البيت العلوي الفاطمي ، وقد ملأت جوانبه روائح القرآن الكريم والذكر الحكيم ودعوات أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ تحيط هذا البيت بسياج من نور الله عز وجل ، وملائكة الرحمن يتابعون الأبوين الكريمين في الصلوات وذكر الله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله في الشهر المعظم .

وتجمعت هذه الأنوار في اليوم الخامس عشر من الشهر

المعظم رمضان السنة الثالثة من الهجرة طلع على المدينة المنورة القمر الأول من أقمار أهل البيت من صلب عليّ بن أبي طالب ولدته أمّه سيدة نساء العالمين الزهراء بنت أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليماً كثيرا ..

ولد الحسن بن عليّ رضى الله عنه وأرضاه .. وحمل البشير النبأ السعيد إلى سيدنا رسول الله ﷺ جدّه فأقبل مشرق الوجه وضّاء الجبين ، وحشد كل ما لديه من حب جميل ، وعواطف نبيلة واحتضن الوليد وأذّن الأذان في أذنه اليمنى وأقام الصلاة في أذنه اليسرى .. وقبّله قُبلة في جبينه استودعها كل الحنان والعطف والشفقة .

يقول الامام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه : لما ولد الحسن جاء رسول الله ﷺ فقال :

« أَرُونِي ٱبْنِي ، ما سَمَّيْتُمُوهُ ؟ . »

قُلْتُ : سَمَّيْتُهُ حَرْبًا ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَا ، بَلْ هُوَ حَسَنٌ .

وَقامَ سَيِّدُنا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَراسِمِ الْمِيلَادِ .

وقام سيدنا رسول الله ﷺ بمراسم الميلاد . فصنع عقيقة في اليوم السابع من ميلاد الحسن الميمون ، وحلق شعره وتصدّق بزنة شعره فضة ..

وبهـذا وضـع سـيدنا رسـول الله ﷺ القـانون الذي يـحكـم فرحة المسلمين بميـلاد أولادهـم ..

أذّن في أذُن الطفـل ليكون أول مـا يـسمع عنـد خروجه إلى الدنيـا ذكـر الله عـز وجـل ، وذكـر رسـوله ﷺ .. فـيكون هـذا غـذاء لفطرتـه ، وإضـاءة لقلبـه ، وبركـة لحـيـاتـه .. ثم عـق العقيـقة صانعاً طعاماً يجتمع عليـه أفـراد العائلة في السابع من أيّـام ميلاده . ويحضر هـذا الطعام الأهـل والأصدقاء ..

ثـم قص شـعـره وتصـدّق بـوزنه فضـة توزع على الفـقـراء والمسـاكين ، والصدقة تحرس الطفـل ، وتتسبب لـه في السعـادة في الدنيـا والدين .

وهكذا ينبغي أن تكون أفـراح المسلمين بـأولادهم يضيـؤها ذكـر الله عـز وجـل ، ويجللهـا وصـل الفـقـراء والمسـاكين وبـرّ اليـتـامى وإدخـال السـرور على الأرامـل ، وفي هـذا إشـاعـة للبـهـجـة في مـجـتـمـع الطفـل ، فـتـسـري فـيـه روح المودة والإخـاء ، ويفيـح فيهـا عـبير الحب ، وذُكاء الأمـن والسـلام الاجتـمـاعي ، وتعـم البركة أرجاء واديـه ، وتعلو الجبـاه إشـراقة الصفاء والوفاء .

وصف الحسن بن عليّ :

كل من رأوا الحسن قالوا : إنه رضى الله عنه كان أشبه بجدّه سيدنا رسول الله ﷺ ..

روى الزهرى عن أنس رضى الله عنهما قال :

« كان الحسن بن عليّ أشبههم وجهاً برسول الله ﷺ » .

وعن هاني عن عليّ قال :

« الحسن أشبه برسول الله مابين الصدر إلى الرأس ، والحسين أشبه برسول الله ﷺ ما أسفل من ذلك » (رواه أحمد ، وفي البداية والنهاية لابن كثير) .

وقد شمله سيدنا رسول الله ﷺ بعناية فائقة وأحاطه بحنان عظيم ، وأغدق عليه بعواطف نبيلة ، فأحبه حباً شديداً ، وكان يطيب له أن يقبّله في وجهه ويمص لسانه ويعانقه ويداعبه وكان يجيء عليه وهو ساجد في الصلاة فيركب ظهره ، فيطيل عليه الصلاة والسلام السجود حتى لا يقطع على ابنه فرحته .

وبذلك يكون سيدنا رسول الله ﷺ قد وضع دستوراً للناس يعاملون أطفالهم وفق ما يقضي به هذا الدستور واتباع سيدنا رسول الله ﷺ والعمل بسنته هذه يجعل

الطفل غنياً بالعواطف النبيلة ، ويُدفّق الرحمة في قلبه ، ويولد التوافق في سلوكه ، فينشأ نشأة سوية وقد شبعت روحه بالإنسجام مع مجتمعه الصغير وهو الأسرة ، ولا يلبث أن يكون ملتئماً مع مجتمعه الكبير الذي يحيا فيه سعيداً .. مشرقاً ، محباً ودوداً بحيث يكون عضواً صالحاً في هذا المجتمع يأخذ منه في رفق ويعطيه في حنان ، ويعامله في رحمة ، فيسعد به ويسعده .. وقد تحقق ذلك كله وأكثر منه لسيدنا الحسن بن عليّ رضى الله عنهما ، حيث بلغ القمة من الفضائل ، والذروة من مكارم الأخلاق عند تنازله عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان مع إمكانيات هائلة توفرت بين يديه لنيلها بحد السيف وإلجام الخصوم ، ولم يكن تنازله لشيء سوى حقن دماء المسلمين ضناً بها أن تسيل في خصومه بين طائفتين من المسلمين في حين حاجة المسلمين لها أن تبذل في إعلاء كلمة الدين ، وتأمين حدود الإسلام .

وقد تحقق بذلك ما حدث به سيدنا رسول الله ﷺ أصحابه فيما رواه الإمام البخاري رضى الله عنه عن سيدنا أبي بكر الصديق رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر

إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول :

« إِنَّ ٱبْنِي هٰذا سَيِّدٌ . وَلَعَلَّ اللهَ يُصْلِحُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . »

ولنا عودة للحديث عنه بعد قليل فانتظر أيها القارىء الكريم .. بعد أن .. نتحدث عن مولد الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما .

مولد الحسين رضى الله عنه

لم يمر عام على ولادة سيدنا الحسن حتى ولدت سيدة نساء العالمين قمراً آخر من أقمار أهل البيت ألا وهو سيدنا الحسين - رضى الله عنه ، الذي أشرق في سماء المدينة المنورة - من بيت الإمام عليّ بن أبي طالب - بوجهه المضيء في اليوم الخامس من شعبان سنة أربع من الهجرة - فلم يكن بين حمله وولادة أخيه الحسن إلا طُهْرٌ واحد . وذلك تقدير العزيز العليم . ومثلما كان استقبال النبى ﷺ لابنه الحسن كان استقباله عليه الصلاة والسلام لابنه الحسين .

في اليوم السابع من مولده : جاء سيدنا رسول الله ﷺ إلى بيت الإمام عليّ وفاطمة رضى الله عنهما وقال :

« أَرُونِى ٱبْنِى ، ما سَمَّيْتُمُوهُ ؟ ».قالَ الإمامُ علِيٌّ :
- سَمْيْتُهُ حربًا . فقال ﷺ : « بَلْ حُسَيْنٌ . »

ولقد حلق له شعره ووزنه بفضة وتصدّق بها عنه ، وأذّن في أذنيه الأذانين وحنّكه وقبله مثلما فعل بأخيه الحسن صلى الله وسلم عليهم أجمعين .

ولقد سلك سيدنا رسول الله ﷺ مع الحسين نفس السلوك الذي انتهجه مع أخيه الحسن .. فقد كان يدلله

ويلاعبه . وقد بلغ هذا التدليل ما رواه صاحب الاستيعاب في أسماء الأصحاب (ابن عبد البر) عن أبي هريرة قال :

« أبصرت عيناى هذه ، وسمعت أذناى رسول الله ﷺ وهو آخذ بكفى حسين وقدماه على قدم رسول الله ﷺ وهو يقول

« تَرَقّ عَيْنَ بُقّهْ » فَرَقَى الْغُلامُ حَتَّى وَضَعَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ : « افْتَحْ فَاكَ (فَمَكَ) . » ثُمَّ قَبَّلَهُ ثُمَّ قَالَ : « اَللَّهُمَّ : أَحِبَّهُ ؛ فَإِنِّى أَحِبُّهُ . »

ملاحظة :

عين البُقّه (كناية عن صغر الجسم) . .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه : أن النبى ﷺ جلس في المسجد فقال :

« أين لكع » ؟ ! فجاء الحسين يمشي حتى سقط في حجره فجعل أصابعه في لحية رسول الله ﷺ . ففتح رسول الله ﷺ فمه - أى فم الحسين عليه السلام - فأدخل فاه في فيه ثم قال :

« اَللَّهُمَّ : إِنِّى أُحِبَّهُ ؛ فَأَحِبَّهُ ، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ . »

(نور الأبصار في مناقب آل النبى المختار للشبلنجي ص١٣٩) .

وعن أبي هـريرة أيضـاً :

« رَأَيْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَـمْـتَـصُّ لُـعـابَ الْحُسَـيْـنِ ، كَمـا يَمْـتَـصُّ الـرَّجُـلُ الـتَّـمْـرَةَ » .

(نـور الأبصـار في مناقب آل النبى المختـار للشـبلنجي ص١٣٩) .

وإليك أيهـا القارىء الكريم هـذه الصورة الإنسانيـة الرائعة من معاملة الحبيب النبى ﷺ لحفيـده الحسين رضى الله عنـه .

روى يَعْلي بن مـرة رضى الله عنـه ، أنـه خرج مع رسول الله ﷺ إلى طعام دعـوا إليـه .. فـإذا حسين في السـكة مع غلمـان يلعب فـتـقـدم رسـول الله ﷺ أمـام القـوم باسـطاً يديـه وجـعـل الغلام يفـر هاهنـا .. وهاهنـا .. وجعل رسول الله ﷺ يضاحكه ، حتى أخـذه ، فـوضـع احـدى يديـه تحت قفـاه ، ووضـع الأخـرى تحت ذقنـه ، وقبله وقـال :

« حُسَـيْـنٌ مِـنِّى ، وَأَنـا مِنْ حُسَـيْـنٍ ، أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَـيْـنًـا .. حُسَـيْـنُ : سِـبْـطٌ مِنَ الْأَسْـباطِ . »

(رواه الامام الـترمـذي من حـديث يعلي بـن مـرة رضى الله عنه بإسنـاد حسـن ، ورواه الامـام البـخـاري والامـام مـسـلم وأبـو داود) .

وقـد ورد فِي الحديث الشـريف عن جابِـرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ قالَ : سَمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَـقُـولُ : « مَنْ سَـرَّهُ أَنْ يَـنْـظُـرَ إِلَى رَجُـلٍ مِنْ أَهْـلِ الْجَـنَّـةِ . » (وَفِي لَـفْـظٍ) « إِلَى سَـيِّـدِ شَـبابِ أَهْـلِ الْجَـنَّـةِ : فَـلْـيَـنْـظُـرْ إِلَى الْحُسَـيْـنِ بْنِ عَلِيٍّ . »

(سـير أعـلام النبـلاء للذهبي) ..

بعض ما ورد في حق الحسين من آثار

١ ـ روى أن الحسن والحسين كانا يصطرعان بين يدى سيدنا رسول الله ﷺ فجعل عليه الصلاة والسلام يشجع حسيناً ويقول :

« هى حسين !! فقالت الزهراء ـ رضى الله عنها ـ مندهشة : هى حسين ؟! فأجاب ﷺ « إن جبريل يقول : هى حسين » (الإصابة في تمييز الصحابة) .

٢ ـ عن عبد الله بن شداد عن أبيه :

« خرج علينا رسول الله ﷺ في احدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً فتقدم النبى ﷺ فوضعه ثم كبّر للصلاة . فأطال سجدة الصلاة ، فرفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ ، وهو ساجد . فرجعت إلى سجودي فلما قضى الصلاة قيل له :

« يا رسول الله !! إنك سجدت بين ظهري صلاتك

سجدة أطلتها ، حتى ظننّا أنه قد حدث أمر ، أو أنه يوحى إليك ! فقال ﷺ : « كل ذلك لم يكن . ولكن ابني ارتحلني . فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته » .

(أخرجه النسائي في سننه)

٣ ـ يروى أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم : دخل على فاطمة الزهراء بعد أن صلى الظهر فوجدها تبكي . . فبكى لبكائها وقال لها :

« لِمَ تَبْكِينَ ، يا فاطِمَةُ ؟ » قالت :

ـ لقد غاب عنّي الحسن والحسين . خرجا ليلعبا منذ الصباح ولم يعودا فاستوحشتهما .

فلم يجلس سيدنا رسول الله ﷺ بل خرج يبحث عنهما . فلقيه أبو بكر الصديق رضى الله عنه فسأله : إلى أين يارسول الله ؟

فَقالَ : « لَقَدْ خَرَجَ الْحَسَنُ والْحُسَيْنُ - مُنْذُ الصَّباحِ - لِيَلْعَبا وَلَمْ يَعُودا لأُمِّهِما ، فاسْتَوْحَشَتْهُما فَأَنا أَبْحَثُ عَنْهُما .

فسار معه أبو بكر ولقيهما عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب فكان منهم ماكان من أبي بكر رضى الله عنهم أجمعين ، واجتمع معهم صحابة آخرون يشاركون في

البحث عن ابني سيدنا رسول الله ﷺ حتى تعب الجميع . فنزل سيدنا جبريل عليه السلام وقال لأشرف الخلق ﷺ :

« يا رَسُولَ اللهِ !! السَّلامُ يُقْرِؤُكَ السَّلامَ ، وَيَقُولُ لَكَ : [إِنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فِي كَرْمِ بَنِي النَّجارِ . »

كانا يلعبان فتعبا فناما فقيض الله لهما ملكاً في صورة طائر يظلهما بجناحيه من حرارة الشمس (!!!) فمضى سيدنا رسول الله ﷺ إلى كرم بني النجار والصحابة خلفه فحمل الحسن على كتف والحسين على الأخرى ، فطلب سيدنا أبو بكر أن يحملهما عنه عليه الصلاة والسلام لكن سيدنا رسول الله ﷺ أبى إلا أن يحملهما . فقال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه للحسنين :

- نعم المطية مطيتكما ، فقال له عليه الصلاة والسلام بل قل : ونعم الراكبان أنتما .

٤ - جاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل :

كان الحسن والحسين يتوضآن - رضى الله عنهما - فإذا بأعرابي لا يدري كيف يسبغ الوضوء فأراد أن يقدما له النصيحة له الواجبة شرعاً لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم . ولكنهما استحييا أن يصارحاه بخطئه ، توقيراً منهما لسنّه ، فقال أحدهما للآخر :

تعال بنا لنرى أينا يحسن الوضوء ؟!

وحكما هذا الرجل ..

وأخذ الشيخ ينظر إليهما متعجباً ، وهو يتابعهما يتوضآن فيحسن كل منهما الوضوء ..

فأدرك الأعرابي أنه هو الذي لا يحسن الوضوء ..

فقال لهما : أنا الذي لا أحسن الوضوء . وشكر لهما أدبهما معه وقال : ليس هذا غريباً على آل محمد ﷺ .

السّيدة الطاهرة زينب بنت عليّ بن أبي طالب بنت سيدة نساء العالمين الزهراء فاطمة بنت النبي ﷺ جميعاً

ميلادها : بزغت شمس الكريمة زينب في شهر شعبان في السنة الخامسة من الهجرة المحمدية .

أي أنها تصغر الإمام الحسين بعام واحد ..

وعندما ولدت استبشر بها سيدنا رسول الله ﷺ واحتفى بها احتفاء عظيماً وسماها باسم خالتها سيدتنا زينب بنت سيدنا رسول الله عليه الصلاة وأزكى السلام. وأحاطها بعطف ورحمة وحنان ، وفجّر لها قلبه ينبوع حدب يسبغه عليها صباحاً ومساء .

وبلغ من شدة عطفه عليها أنه كان إذا عاد من سفر

دخل المسجد فصلى ركعتين ثم دخل بيت فاطمة الزهراء وتلقف بنتها زينب يغمرها بحنان دفّاق ورحمة مدرارة حتى يرى بريق السعادة في عينيها .. وعيني والدتها الرءوم . فهي قد نعمت في طفولتها بأحضان أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ .

وقد سبق أن قلت : إن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم قد منحه الله سبحانه وتعالى طاقة روحية متفوقة ، نفاذة وقوية حتى إنه كان يمسك الحصا بيديه فيسبح الحصا بحمد الله ويشهد بطلاقة اللسان بأنه محمد رسول الله ﷺ .

وقد نقلت لنا كتب السيرة وكتب الحديث أنه احتضن طفل اليمامة المبارك ساعة ولد وسأله قائلاً يا غُلامُ مَنْ أَنا ؟ فردّ عليه الطفل وليد الساعة وقال :

- أنت محمد رسول الله ﷺ ، فقال سيدنا رسول الله ﷺ : صَدَقْتَ .

هذا من أمر الجماد وهو الحصى وماكان من أمر طفل ساعة ولادته .. فماذا يحدث لأولاده الحسن والحسين وزينب عليهم الصلاة والسلام والرحمة والرضوان . وهو يعانقهم ويحبهم ، ويبذل لهم الحنان والرحمة والشفقة ؟؟!!

إنهم أجزاء منه ، وبضع منه ، تتحرك فيها الحياة

مجللة بالعلم ، والنّور ، والحكمة وفصل الخطاب .

إن السيدة زينب نشأت في هذا النعيم الروحي وتغذت من شهده ورضابه ، وارتوت من رحيقه وتناولت العلم من جدّها عليه الصلاة والسلام ، واغترفت الحكمة وورثت فصاحة أبيها سيد الرجال عليّ بن أبي طالب . ووداعة أمها رضى الله عنها وأرضاها وأدبها العالي ، فأصبحت بذلك جوهرة أهل البيت وشمسهم الساطعة .

ومن المسلم به أنها ورثت الورع والتقوى من أبيها عليّ كرّم الله وجهه ، وورثت الزهد ورقّة القلب من أمها رضى الله عنها ، وأصابها من نور النبوة رزق كريم .. وفي هذه البيئة النبوية استوت وآتاها الله العلم والحكمة والفصاحة والبلاغة وفصل الخطاب ، كما أنها تدربت على قوة التحمل ، وسعة الصدر ، ورحابة القلب ، وصفاء السريرة ، وطهر الفؤاد ، وعظمة الخلق وحُسن السلوك ، وعفّة اللسان الصادرة عن طهارة الوجدان ، فحازت نعمة من نعم الله العظمى ألا وهى التكامل الخلقي .. فأصبحت رفيعة المقام . عظيمة الشأن ، متفردة في المنزلة ، ثاقبة الرأى ، سديدة القول ، قوية الشكيمة ، شديدة العزيمة ، متوهجة الإيمان . مضيئة الوجدان ، فقيهة في الدين ، عالية الدرجة ، سامية المكانة ، والذي أعطاه الله بعضاً من ضياء البصيرة ونور القلب ، يتيقن أن

الله سبحانه وتعالى أغدق عليها هذه الكمالات لتكون لها زاداً تتقوى به على مواجهة المحن والكوارث التي أصابت أهل البيت النبوي الشريف في كربلاء فثبتت بالقول الثابت وقالت ما يرضى الله سبحانه وتعالى . وعندما إرتدى يزيد بن معاوية ثوب الغرور بعد استشهاد سيد الشهداء الحسين بن عليّ رضى الله عنهما وهو أخوها الحبيب وأخذت عقله نشوة النصر الزائف ، وأمسك بيده - شلّت يداه - بقضيب أخذ ينكث به ثغر الإمام الحسين وهو يقول :

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت
قواضيب في أيماننا تقطر الدما
يفلقن هاما من رجال أعزة
علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ورأى الصحابي الجليل أبو برزة هذا المنظر فصاح في وجه يزيد قائلاً :

« اتنكت بقضيبك في ثغر الحسين ؟؟!! أما والله لقد أخذ قضيبك هذا مأخذاً، لقد رأيت رسول الله ﷺ يرشفه ، أما إنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ويجيء هذا يوم القيامة وشفيعة محمد ﷺ .. ثم قام فولى ..

(تاريخ الرسل والملوك للطبري)

عند ذلك انبرت عقيلة بني هاشم السيدة الكريمة زينب

بنت عليّ توبّخ يزيداً على فعلته الدنيئة الخسيسة وتقرع سمعه بكلمات الحق التي تحولت إلى مطارق تدك كيانه ، وتخذل بنيانه وهي تقول :

« أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض ، وأكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما يساق الأساري ، أن بنا هوانا على الله ؟؟! وبك عليه كرامة (!!!)

وأن هذا لعظيم خطرك ، فشممت بأنفك ، ونظرت في عطفيك جذلان فرحا . حين رأيت الدنيا مستوسقة لك ، والأمور متسقة عليك . أنسيت قول الله تبارك وتعالى :

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

(آل عمران)

أمن العدل يا ابن الطلقاء - تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله ﷺ كالسبايا - قد هتكت شعورهن ، وأبديت وجوههن ، ليس معهن من حماتهن حمى ، ولا من رجالهن ولى ، وأنت تنكت ثنايا أبي عبد الله بمخصرتك ؟ والله ما فريت إلا جلدك ، ولا حززت إلا في لحمك ، وسترد على رسول الله ﷺ برغمك ، وعشرته ولحمته في حظيرة

القـدس ، يـوم يـجـمـع الله شـمـلهـم من الشـعـث وهـو قـول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

« وسيعلم من بوّأك من رقاب المؤمنين إذا كان الحكم الله . والخصم محمد ﷺ .

وجوارحك شاهدة عليك ، فبئس للظالمين بدلاً . . أيكم شر مكاناً وأضعف جنداً » .

فلئن اتخذتنا مغنماً ، لتتخذن مغرماً ، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك . تستصرخ بابن مرجانة ويستصرخ بك وتتعاوى وأتباعك عند الميزان ، وقد وجدت أفضل زاد لك ، قتلك ذرية محمد ﷺ .

فوالله ما اتقيتُ غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكد كيدك ، واسع سعيك وناصب جهدك ، فوالله لا يرحض عنك عار ما أتيت إلينا أبداً يوم ينادي المنادي :

أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ (هود آية : ١٨)

والحمد لله الذي ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبان الجنان ، فأوجب لهم الجنة » انتهى كلام السيدة زينب .

أرأيت شجاعة تقطر علماً وفقهاً ، ووعياً وحكمة ، وبلاغة وفصاحة ، وإيماناً وصبراً مثل هذه الشجاعة التي أصبحت تاجاً يتلألأ على جبهة السيدة عقيلة بني هاشم حفيدة سيدنا رسول الله ﷺ . . أرأيت ثباتاً ورشداً ينطقان الحكمة تضيء ليل الكارثة وظلام المحنة ، وتكوي كلماتها المشتعلة جبهة الطاغية الذي سقط ذليلاً أمامها سقوط فرعون أمام المؤمن الذي رفعه إيمانه إلى مافوق ملك الدنيا .

هذا الإيمان الذي رفع بنت بنت سيدنا رسول الله زينب وبنت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب إلى أرقى الدرجات عند الله رب العالمين وخلد اسمها في تاريخ البشرية مكتوباً بحروف من نور . مناضلة من أجل الحق ، قاهرة للطغيان والطغاة . . معلمة للإنسانية علماً نافعاً في أصول الدفاع عن حقوق الإنسان .

ألقت هذا الدرس على يزيد بن معاوية وهو على عرش الملك يظن أنه المنتصر ويعلن الشماتة في أهل البيت وهي رضوان الله عليها قد تكالبت عليها أسباب الضعف والخوار والاستسلام التي لو أحاطت بفريق من الرجال لاستخذوا وهانو واستسلموا ، لكنها استعانت بسلاح الإيمان المكنوز في وجدانها ، والموروث عن أبويها وجديها عليهم الصلاة والسلام ، وبما منحها الله سبحانه من قوة فطردت أسباب

الضعف من قلبها واستبقت أسباب القوة فقهرت يزيد والمنافقين من حوله وسلطت عليهم من أيمانها سهاماً أصابت قلوبهم فانكسرت فكان الضعيف المهزوم هو يزيد والمحيطين به من أهل النفاق الذين أظلمت قلوبهم وعميت بصائرهم فلم يروا نور أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ يتلألأ على جبين الطاهرة السيدة زينب رضى الله عنها ولم يروه ساطعاً على جبين سيدنا عليّ زين العابيدن بن الحسين سيد الشهداء وفوق كل جبهة من جباه من نجاهم الله من أهل البيت النبوي الكرام رضى الله عنهم أجمعين .

وأيقظت السيدة زينب بنت الإمام عليّ كرّم الله وجهه بنت سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء يزيد بن معاوية من سكرته ، وأيقظت في وجدانه النفس اللوامة ، وأيقظت فيه بقية من مروءة القرشي وبقية من وشائج القربى ، وعلائق الرحم ، وقد ظهر ذلك في أمرين :

الأمر الأول : هو أنه بعد إخراجه من حوله من مجلسه تمكن من إصدار أوامره بإنزال أهل البيت الكرام من النساء وعلى رأسهن الطاهرة السيدة زينب رضوان الله عليهم في بيت الخلافة .

وكذلك خصّ سيدنا علياً زين العابدين وأخاه سيدنا عمر بن الحسين رضى الله عنهم بعناية فائقة ، ولعل الله

سبحانه وتعالى بقدرته قد بدّل قسوته بحنان والله على ذلك قدير فهو يفجر الماء في الحجر الجلمود ، وهو الذي فجر الحنان في قلب فرعون ينعم به نبيه موسى عليه السلام . وإن مشهده وهو يتناول الطعام معهما ، ويسبغ عليهما رحمة غير معهودة فيه ، ليثير فيمن يتأمله العجب كل العجب من أمر الإنسان .. هذا المخلوق الذي ينطوي اهابه على المتناقضات من العواطف والإنفعالات .. التي تدفعه إلى اتخاذ موقف تبدو في ظاهرها مواقف متناقضة ومختلفة . فيزيد الذي اندفع في طريق الشر ، وسولت له نفسه التخلص من ابن النبى محمد ﷺ ، وأدى ذلك إلى قتله ، وشعر عند ذلك بالراحة ، هو يزيد الذي استسلم لقذائف الحق التي سلطتها عليه أميرة البيان وسيدة الفصاحة زينب بنت عليّ بن أبي طالب فصدرت عنه أقوال وأفعال تناقض نوازع الشر وتسكنها في داخله .. وتفيح بعبير الخير .. تستبعد الخسة وتشع بالنيل ، تقصي التشفي وتطهر الحنان والعطف فيالغرابة تكوين هذا الإنسان !!

الأمر الثاني: عندما ودّع علياً زين العابدين : في طريقه إلى المدينة ، فقد صدرت منه عبارة دلّت على ما طواه قلبه من شجن وحزن مما حدث حيث صب اللعنة على عبيد الله بن زياد فقال لعلي زين العابدين :

ـ قبّح الله ابن سمية . أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألني خصلة إلا أعطيته إياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ، ولو بهلاك بعض ولدى ولكن الله قضى ما رأيت ، ثم أعطاه مالاً وفيراً وأوصاه أن يكاتبه بكل ما يحتاجه .

(سيد شباب أهل الجنة بقلم الأستاذ حسين محمد يوسف) عليه رحمة الله .

فكون يزيد يمشي في وداع سيدنا عليّ زين العابدين ويزفر زفرة الندم التي حملتها كلمات الوداع . ويعلن سخطه على من قتل الإمام الحسين بن على ويحاول التنصل من هذه الجريمة الشنعاء هارباً منها إلى قضاء الله .. هذا في ذاته خفض جناح منه دافعه صلة الرحم والقرابة التي تجمع بين معاوية والإمام عليّ بن أبي طالب . كانت قد دفنتها الدنيا الحقيرة بحمئها المسنون الذي أزاحته عنها كلمات الطاهرة سيدتنا زينب رضوان الله عليها الصادرة عن إيمانها العميق ، وعلمها الغزير وبلاغتها القوية . وشخصيتها القوية . سلام على سيدتنا زينب في العالمين .

سلام على سيدتنا زينب في العالمين..

السيدة أم كلثوم بنت عليّ شقيقة الحسنين السبطين وشقيقة السيدة زينب كريمة الدارين وأمها سيدة نساء العالمين وأبوها الإمام عليّ بن أبي طالب وجدها خاتم الأنبياء والمرسلين أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليماً كثيراً . وهى التي ألحّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه على أبيها أن يزوجه إيّاها حرصاً منه على علاقة المصاهرة بينه وبين البيت المحمدي وأهله الكرام.

ولزواجها من أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه قصة طريفة تخلص في أنه طلبها من أبيها رضى الله عنه فقال :

- زوّجني أم كلثوم . فقال الإمام عليّ :

- هى صغيرة ..

فألحّ أمير المؤمنين وأجمل الطلب فقال له الإمام :

- أرسلها لك ومعها طبق من التمر فإن أعجبتك فهى لك .

وأرسل سيدنا عليّ رضى الله عنه سيدتنا أم كلثوم إلى سيدنا عمر بن الخطاب ومعها طبق من التمر وقال لها :

- أعط التمر لأمير المؤمنين . ثم أسأليه :

هل أعجبك التمر ..

فلما سألته أجابها : نعم أعجبني التمر . فداعبها بما يفيد القبول ..

فلما عادت إلى أبيها قالت له :

- لقد أرسلتني إلى شيخ سوء !! فرد عليها :

- هو زوجك ..

وبُني أمير المؤمنين بها ، وكانت له نعم الزوجة ، وأعانته في مجال مزاولته لأعمال الخير .

يروى أنه رضى الله عنه كان يسير في الصحراء حول المدينة ليلاً .. فسمع صوتاً ينبعث من خيمة ينبىء عن حدوث ولادة . فعاد إلى بيته وحمل معه دقيقاً وسمناً وعسلاً ومبلغاً من المال وصحب معه في هذه الرحلة المباركة زوجته سيدتنا أم كلثوم واستأذن رب الأسرة في الدخول فسعد بزيارة أمير المؤمنين وزوجته وأمر سيدنا عمر زوجته بالدلوف إلى حجرة المرأة التي تلد ومعها هديته من الدقيق والسمن والعسل .

وبعد فترة غابت فيها أم كلثوم داخل الحجرة وأمير المؤمنين يسامر صاحب البيت خرجت أم كلثوم وخاطبت زوجها أمير المؤمنين بقولها :

- بشر صاحبك بغلام !

هذه صورة من الأعمال التي كانت سيدتنا أم كلثوم بنت سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء وبنت الإمام عليّ بن أبي طالب تقوم بها معاونة لزوجها أمير المؤمنين عمر في خدمة مجتمع المدينة المنورة عليهم جميعاً رحمة الله ورضوانه ..

وهى في هذا تلتزم منهج أهل بيت سيدنا رسول الله ﷺ الذين يسارعون في الخيرات وهم لها فاعلون .

وأدعو الله أن يمكنني من استكمال مناقبها الكريمة في مقام آخر إن شاء الله في عمل قادم يوفقني الله إليه ، فمنه سبحانه وتعالى التوفيق وعليه التُّكلان .

هذا هو البيت الشريف الذي كافحت فيه سيدتنا الزهراء ، وتخرج فيه على يديها .. علمان من أعلام الإسلام هما سيدنا الإمام الحسن وسيدنا الإمام الحسين ، وصاحبة الشورى الفقهية في الدّين ، الحائزة للحكمة وفصل الخطاب سيدتنا زينب ، وربيت فيه جوهرة أهل البيت أم كلثوم .. على جدهم وعليهم أفضل الصلوات وأتم التسليمات .

بلاغة الزهراء رضى الله عنها

جزى الله أستاذنا عباس محمود العقاد خيراً ورحمه رحمة واسعة .. إذ عقد فصلاً خاصاً من كتابه القيم « فاطمة الزهراء والفاطميون » تحدث فيه عن بلاغة الزهراء رضى الله عنها فقال :

قال الإمام أبو الفضل أحمد بن طاهر في كتاب « بلاغات النساء » .. لما أجمع أبو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله ﷺ - فدك - ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها ، وأقبلت في لمة من حفدتها تطأ ذيولها ، ما تخرم من مشية رسول الله ﷺ شيئاً ، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار ، فنيطت دونها ملاءة ، ثم أنت أنةً أجهش القوم لها بالبكاء ، وارتج المجلس ، فأمهلت حتى سكن نشيج القوم، وهدأت فورتهم ، فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ فعاد القوم في بكائهم فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت :

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ (آخر سورة التوبة)

فإن تعزوه تجدوه أبى دون نساءكم ، وأخا ابن عمي دون رجالكم ، فبلغ النزارة صادعاً بالرسالة ، مائلاً على مدرجة المشركين ، ضارباً لثجنهم (الطريق الوعر) آخذاً بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهام ، حتى هزم الجمع وولوا الدّبر ، وتعرى الليل عن صبحه ، وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين ، وخرست شقاشق الشياطين ، وكنتم على شفا حفرة من النار ، مزقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقبسة العجلان ، وموطىء الأقدام ، تشربون الطرق ، وتقتاتون القد أذلة خاشعين ، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم ، فأنقذكم الله برسوله ﷺ بعد اللتيا والتي ، وبعدما منى الرجال ، وذؤبان العرب ، ومَرَدة أهل الكتاب كلّما حشوا ناراً للحرب أطفأها الله ونجم قرن للضلال ، وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه في لهواتها ، فلا ينكفي حتى يطأ صماخها بأخمصه ، ويخمد لهيبها بسيفه ، مكدوداً في ذات الله ، قزيباً من رسول الله ، سيدا في أولياء الله وأنتم في بلهنيه وادعون آمنون . حتى إذا اختار الله لنبيه في دار أنبيائه ، ظهرت خلة النفاق ، وسمل جلباب الدين ، ونطق كاظم الغاوين ، ونبغ خامل الآفلين ، وهدر نقيق المبطلين ، فخطر في عرصاتكم ، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه ، صارخاً بكم ، فوجدكم لدعائه مستحبين وللعغرة فيه ملاحظين ، فاستنهضكم ، فوجدكم خفافاً وأحمشكم فألفاكم غضاباً ،

فوسمتم غير إبلكم ، وأوردتموها غير شربكم ، هذا والعهد قريب ، والكلم رحيب والجرح لما يندمل . . إلى أن قالت :

« وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا أفحكم الجاهلية تبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ، أيها المسلمة المهاجرة أأبتز إرث أبي ؟ ! أفي الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فريا . . فدونكما مخطومة موحولة تلقاك يوم حشرك . فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون . ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » .

ثم انحرفت إلى قبر النبى ﷺ وهى تقول :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وليس هذا كل الشعر الذي نسب إليها في رثاء أبيها نبى الله ورسوله أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ . . فقد نقل عنها رضوان الله عليها أنها بعد فراغ المسلمين من دفن سيدنا رسول الله ﷺ وبعد أن رَوَوْا تربته من دموعهم الساخنة حزناً لفراقه خاطبت أنساً بن مالك رضى الله عنه وهو خادم النبى ﷺ قائلة :

يا أنس : كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب ؟ ثم بكت ورثته قائلة :

اغْبَرّ آفاق السماء وكوّرت
شمس النهار وأظلم .. العصران

فالأرض من بعد النبى كئيبة
أسفاً عليه .. كثيرة .. الرجعان

فليبكه شرق البلاد وغربها
ولتبكه مضر .. وكل .. يماني

وليبكه الطود المعظم جوده
والبيت ذو الأستار والأركان

يا خاتم الرسل المبارك ضوءه
صلى عليك منزل .. القرآن

ومن شعرها الرثائي لأبيها عليه الصلاة والسلام الذي جاش في صدرها شجناً وحزناً ، وانطلق به لسانها ألماً وحسرة ما قالته بعد أن قبضت حفنة من تراب قبره الشريف ووضعتها على عينيها وأجهشت بالبكاء :

ماذا على من شم تربة أحمد
أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت على مصائب لو أنها
صبت على الأيام .. صرن لياليا

وقالت أيضاً :

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نعيت وحالت دونك الكثب

لقد نقلت للقارىء هذه الزفرات التي فاضت عن قلب الزهراء الذي حوّلته الأحزان التي صحبتها منذ نعومة أظفارها إلى بحيرة من الأتراح فتدفقت كلمات شجية فداعبت برنينها وشجنها أوتار القلوب فتردد معها آهات الحزن الدفين في لفائف الإيمان بالله والتسليم بقضائه والرضا بقدره .. والأذعان لحكمه .. وهذا أرقى أنواع الأحزان التي يسكن بها القلب سكينة مصدرها الرضا بمعاملة المعبود بحق وهو الله الرحمن الرحيم . فلا غرو أن تلقت الأرواح الطيبة هذا الشراب المسكوب في هذه الكلمات الدافئة فتنتعش ، وترتوي بها زهرات الإيمان بالله الواحد الأحد المتفرّد بالعزة والبقاء والذي كتب الموت على كل ما خلقه من كائنات وأودع في قلب حبيبه ومصطفاه ﷺ وفي عقله ووعيه نور

هـذه الحقيقة مخاطباً أباه في الآيتين رقمى ٣١ ، ٣٢ من سورة الزمر :

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾

وفي بيان واضح جلّى في قوله عز من قائل في الآيتين ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنبياء :

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾

ثم خاطب المؤمنين أحباب سيدنا رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة التي لا مفر من التسليم بها في قوله عز من قائل في الآيتين ١٤٤ و ١٤٥ من سورة آل عمران :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ۝١٤٤ وَمَا كَانَ

لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

وباليقين نقول إن الزهراء سيدة نساء العالمين قد تلقت من فم أبيها سيدنا رسول الله ﷺ هذا البيان القرآني ساعة نزوله ونقشت على قلبها الوضيء ، حروفه النورانية ترسّخ في وجدانها عقيدة التوحيد ، وتعمق في فؤادها الشعور بعظمة الله سبحانه وتعالى التي تفرد بها وبجلاله الذي لا يشاركه فيه أحد سواه .. وبأحاديثه التي تسمّى بها ولم يتسم بها غيره . فهي مؤمنة بهذا إيماناً لا يتزعزع ، ثابتة عليه ثبات الراسيات من الجبال .

ومن هنا فإن ما فاض منها من كلمات في رثاء أبيها هو نوع من الحزن الحميد ، أو تقول إنه الحزن الجميل ، أو أنه الحزن اللذيذ : يطيب للنفس أن تتعاطاه ، إذ أنه جلاء للقلوب ، وشفاء للأبدان ، وحياة للأرواح ، نوع من الحزن عايشه والدها العظيم أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ عندما انقطع عنه الوحى أياماً دلف هذا الحزن الجميل إلى قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام فزاده سطوعاً ، وزاده من شوقه إليه والحنين حتى سكب في قلبه روعة الوصل السرمدي

بالنور الأزلي الأبدي، والعطاء المتواصل السخى في قوله عز من قائل في سورة الضحى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

وسقا الله سبحانه وتعالى قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام بسلسبيل ألم نشرح لك صدرك فقال له في سورة الشرح :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

فأنت إذا قرأت ماجادت بـه روح سيدتنا الزهـراء رضى الله عنها من شـعر فإنك تشـم منـه عبير هذا النوع من الحزن الذي عايشه سيـدنا رسـول الله ﷺ عنـد انقطاع الوحى عنـه .. هـذا الحزن الحميـد ، والجميـل ، واللذيـذ . لاسيـما إذا تذكـرت معي قوله لسيدتنا الزهـراء وهـو يحتضـر :

« إِنَّـكِ أَوَّلُ مَنْ يَـلْحَـقُ بِى مِنْ أَهْـلِ بَـيْـتِى . » فَـضَحِكَـتْ - رَضِىَ اللهُ تَـبـارَكَ وَتَعالَى عَـنْـها وأَرضاها- .

عرفت معي أيهـا القارىء الكريم لـذة الحزن الجميل الحميد اللذيذ . الذي فـاض شعراً من قلب سيدة نسـاء العالمين رضى الله عنهـا رثاءً لأشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ .

إنـه حـزن ناشىء عن شـوقهـا لأيـام سيـدنا رسـول الله ﷺ التي شـهـدت جـهـاده وليـاليـه التي أضـاءهـا الوحى والتنزيل والذكـر الحكيم والقرآن العظيـم . فـمـا أسـمـاه ، ومـا أرقـاه !!! وما أجمله من حزن حميد ، وجميـل ، ولذيذ .. وجليـل .

ألا تكفي ينابيع هـذا الحزن المتدفقة في خصوبة وموران أن تلد هـذا الشـعـر الجـميـل الحـزين الحـمـيـد اللذيذ ؟! ألا تكفي وحـدها في تنضـيـد هـذه اللآلىء من جـواهـر الكلام ، ودراري الألفاظ ؟

إنهـا وحـدها قادرة أن تلـد هذه المعـاني السـامـيـة المسـتورة بالألفاظ الجميلة .

فإذا ما أضفنا إليهـا حقيقة أنهـا العربية القرشية الهاشمية المحمدية النسب والشرف .

وإذا مـا أضـفنا إليـهـا كـذلك أنهـا قـرآنيـة العلم ، ونورانيـة الأدب ، وأنـهـا قـد إرتوت من ورد القـــرآن الكريم الصـــافي والذكر الحكيم ، فإننا لا نعجب من هذه الفصاحة وهـذا السمو في التـعـبـيـر ، ولا تـسـتـغـرب تملكهـا لـنـاصـيـة البـيـان وتمتعـهـا بالحكمة فإن الشيء من معدنه لا يستغرب .

ثم إنهـا زوج إمـام البـيان ، ومعدن المعـرفة ، وأصـل البـلاغة الإمام أمـير المومنين عـليّ كرّم الله وجهه ورضى الله تعالى عنهم أجـمـعين . . وهـو الذي تعلـم الكـثيـر الغـزيـر الوفـيـر من عـلـم رســول الله ﷺ الـذي هــو علـم الكـتــاب ، وقـد روى عنــه أنــه قـال :

« أنــا مدينـة العـلـم وعـليّ بابهـــا » . .

إذن فـسـيـدة نسـاء العالمين لهـا مكانة أدبيـة عاليـة ، ومنزلة بلاغـيـة لـم تتـوفـر لغـيـرها فـاسـتـحـقت بذلك أن تكون المثـل الأعلى لنسـاء العالمين في العـلم والبـلاغة كمـا أنهـا المثل الأعلى في الـورع والدين ومكـارم الأخـلاق .

رضى الله عنها وعن ولديها الحسن والحسين وعن بنتيها زينب وأم كلثوم ، وعن ذريتهم إلى يوم الدين وعن سيد العرب وإمام الدين عليّ بن أبي طالب . وصل اللهم وبارك على سيدنا رسول الله وعليهم أجمعين .

وهناك مصدر ثرى تستمد منه الزهراء الثراء والغنى في بلاغتها وحُسن بيانها ، هذا المصدر الثري هو أمّها القرشية خديجة عليها من الله الرحمة والرضوان التي وهبها الله الحكمة والفصاحة وحُسن البيان بلغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم . .

وهذه السيدة الجليلة أمّ المؤمنين التي حرست سيدنا رسول الله ﷺ بقوة شخصيتها وبلاغة حجتها بعد أن تيقّنت من صدقه وأمانته ووجدت فيه الأمان المنشود والحصانة الموهوبة له من الله والصدق البارّ المبرور الذي خلقه الله عليه ، والسلوك الفاضل والخلق العظيم الذي طمأنه الله سبحانه وتعالى به في قوله عز من قائل في سورة القلم الآية (٤) :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

ولقد رأته مكنوزاً في شخصيته ، باهراً في سلوكه ، مضيئاً على جوارحه ، وضّاحاً على جبينه قبل أن تنزل هذه

الآيـة بسنوات غـير قليلة مما يفيد أن الله قـد أعدّها زوجـة لنبيـه وحبيـبـه ورسوله ومصطفـاه أشرف الخلق سيـدنا محـمـد ﷺ لتكون عـونـاً لـه في تبليغ رسالتـه والله خـيـر معين ولكنه فضل الله يؤتيـه من يشـاء والله ذو الفـضل العظيـم ، وستبـقى كلماتها المضيئة التي تفجرت في حروفها أنـوار الحقيـقة عنـد نزول أول حـروف القـرآن وبواكـيـر شـرابه الحـلو المـذاق : بسم الله الرحـمن الرحـيـم ﴿ اقـرأ ﴾ .. ستـبـقى هـذه الكلمـات درراً تشـفع في جـبين الـدهـر في الأزل والأبـد لتكتب شـهـادة لهـا بعطاء الله لهـا من الحكمـة وفـصل الخطاب ومـصدر إلهـام لكل نساء العالمين ، ونبـع هـدى للنـاس أجمعين :

« والله لن يخـزيك الله أبـداً . إنك لتـصل الرحـم ، وتصـدق الحديث ، وتقرى الضيـف ، وتحـمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعـين على نوائب الدهـر » .

هـذه مـصادر بلاغـتـهـا رضـوان الله عليـهـا . نفحـة سـيـدنا رسـول الله ﷺ وريحـانتـه من الدنيـا ، أم أبيـهـا وسـيـدة نسـاء العالمين وسيدتنا فاطمة الزهراء رضى الله عنها وأرضاها .. وكل هـذه المصادر يعلوها القرآن الكريم ينزل عليـهـا فـإذا بهـا اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيـج ، وصدق الله العظيـم إذ يقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونختتم الكلام في بلاغتها رضوان الله عليها بهذه الرواية :

عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : « ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله ﷺ من فاطمة ، وكانت إذا ذخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه ، وكان إذا دخل عليها ، قامت إليه ، ورحبت به ، وأخذت بيده فقبلتها ، فدخلت عليه في مرضه الذي توفى فيه فأسر إليها فبكت ، ثم أسر إليها فضحكت فقلت : « كنت أحسب لهذه المرأة فضلاً على النساء فإذا هي واحدة منهن بينما هي إذا هي تضحك فلما توفى رسول الله ﷺ سألتها فقالت « أسر إليّ فأخبرني أنه ميت فبكيت ثم أسر إليّ أنّي أول أهل بيته لحوقاً به فضحكت » .

إن الزهراء بصلتها بأشرف الخلق وخاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ ، وبمرافقته لها وبتركيزه عليها يعطيها من علمه ، ويحبوها من حكمته ، كل ذلك يكفيها لتكون سيدة نساء العالمين في الدين والعلم والحكمة في الحديث العادي والبلاغة وحُسن البيان في خطابها ، وذلك الفضل من الله . . والله ذو الفضل العظيم .

الزهـــراء والعمـــل العـــام

أحاطت الزهراء رضوان الله عليها بيتها بذراعين حانيتين ، وأقبلت على خدمة زوجها الإمام عليّ كرّم الله وجهه وأولادها الكرام بهمّة عالية ، وقوّة لا تكل ، وعزيمة لا تضعف ، وبروح متوقدة لا تعرف الكلل ولا يعرفها الملل .. حتى أن من يراها يظن أنها لا تطرق العمل العام ، ولا تجيد لغة التخاطب مع المجتمع من حولها . ولا تشغل بالها بقضاياه ، ولا تتفاعل مع أفراده . وهذا ما يتبادر إلى ذهن من يقرأ تاريخها قراءة سطحية يجانبها التعمق ، ويجافيها الفهم الصحيح .

وإن من يحاول قراءة تاريخها يتأكد من إنشغالها بهموم الدعوة منذ نعومة أظفارها حتى لقيت ربها راضية مرضية ، هادية مهدية لتكون على رأس أهل الجنة في دار النعيم ، حيث بشرها أبوها النبى الكريم وقال :

« فاطِمَةُ : سَيِّدَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ . »

وتشهد لها الوقائع الآتية :

أولاً : كانت في السادسة من عمرها : يوم تجرأ الكفرة الفجرة وألقوا سَلا الناقة على أبيها سيدنا رسول الله ﷺ ، واقتحمت عليهم مجلسهم المشين . وذادت عنه عليه الصلاة والسلام بما تملكه الطفلة من كلمات تقرّع بها فرعون الأمة

أبا جهل عمرو بن هشام الذي أوجعته شظايا الكلمات فصفعها على وجهها وتصدّى له أبو سفيان بن حرب ووبّخه قائلاً : « كيف تصفعها وهى سيدة في قومها ؟ ! وتقول بعض الروايات أن أبا سفيان مكّن الزهراء من صفع أبي جهل فعلة بفعلة مما دفع سيدنا رسول الله ﷺ إلى أن يدعو الله له قائلاً :

« اَللَّهُمَّ : لا تُنْسِها لأَبى سُفْيانَ بْنِ حَرْبٍ !! » وَقَدْ جَنَى أَبُو سُفْيانَ ثَمَرَةَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ حَيْثُ هداهُ الله إِلَى الإِسْلَامِ » .

ثانياً : ما سجله القرآن الكريم من عمل لها أصبحت به مثلاً أعلى يكفيها أن ترتفع به إلى قمة شامخة من القدوة الحسنة .

ذلك أنها وأسرتها الكريمة قد تعوّدوا الصيام نفلاً وابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى .

وفي يوم من أيام صيامهم دخلت المغرب وتهيأوا للإفطار فإذا بمسكين يطرق الباب طلباً للطعام .. فاقتطعت له جزءاً من طعامهم القليل وآثرته به .

حتى إذا كان اليوم الثاني ووضعت طعام الإفطار جاء يتيم فطرق الباب وسأل عن الطعام فآثرته بجزء من طعامهم .

وفي اليوم الثالث : جاءهم أسير جمع بين ذل الأسر وذل الجوع .. فآثرته الزهراء بشيء من الطعام يسد به جوعته .

وكان الله من فوق سبع سماوات يتابع هذا العمل النبيل فنزل بالتنويه به وبهم القرآن الكريم يحمله جبريل عليه السلام ليتلى حتى تقوم الساعة ويأتنس به الصالحون من عباد الله ، ويضيء للإنسان طريق هداه إلى يوم الدين ، في قوله عز من قائل في سورة الإنسان الآيات :

وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

(يراجع تفسير القرطبي . المجلد الثامن - دار الشعب) . .

٤ - كانت تقوم بعلاج جروح والدها سيدنا رسول الله

ﷺ وجروح زوجها علـيّ بن أبي طالب كـرّم الله وجهـه .

٥ - الحوار الخالد بينها وبين سيدنا الصديق أبي بكر رضى الله عنه في شأن حقها في الميراث من أبيها ﷺ . .

إنتقل سيدنا رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى من الجنة ، وكان قد أعطي إشارات توجه نظر المسلمين إلى الخليفة من بعده ، مكتفياً بالإشارة إلى العبارة ، بحيث لو أمعن صحابته الكرام - من المهاجرين والأنصار - النظر لتيسّر لهم اختيار الخليفة في لحظة واحدة دون خلاف أو اختلاف . ومن هذه الإشارات مايأتي :

(أ) مروا أبا بكر فليصل بالناس !! :

عندما حمى وطيس الحمى على سيدنا رسول الله ﷺ . وغلبه المرض ، وأنس من نفسه عدم القدرة على الصلاة بالناس في المسجد قال لهم :

« مُـروا أَبـا بَـكْـرٍ، فَـلْـيُـصَـلِّ بِالـنَّـاسِ » ! .

فراجعته الصديقة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بنت الصديق أبي بكر رضى الله عنه وقالت له : إن أبا بكر رجل بكاء يارسول الله فلو أمرت عمر فليصل بالناس !!

فقالَ لها : إنَّـكُنَّ صُـوَيْحِباتُ يُوسُفَ .. مُـرُوا أَبـا بَـكْـرٍ فَـلْـيُـصَـلِّ بالـنَّـاسِ!!

وأخذته غيبوبة الحمى وعندما أفاق سمع صوت عمر يصلي بالناس فقال :

« يَـأْبَى هَـذا اللهُ وَرَسُـولُهُ والْمُـؤْمِنُـونَ !!
مُـرُوا أَبا بَـكْـرٍ فَـلْـيُـصَـلِّ بالـنَّـاسِ .

فَأَذْعَنَ الْقَوْمُ لأمرِ سَيِّدنا رَسُولِ اللهِ ﷺ وقام أَبو بكْرٍ وَصلَّى بالنَّاسِ .

فأذعن القوم لأمر سيدنا رسول الله ﷺ وقام أبو بكر وصلّى بالناس .

وأمر سيدنا رسول الله ﷺ بسبع قرب من الماء فكبت عليه وربطوا له رأسه وأطل من كوة في المسجد على صفوف المسلمين يركعون لله ويسجدون ويؤمهم سيدنا الصديق أبو بكر رضى الله عنه . . فتهلل وجهه فرحاً وسروراً .

(ب) ذهب سيدنا رسول الله ﷺ ليصلح بين قبيلتين وأمر إن تأخر عن الصلاة في مسجده بالمدينة أن يؤم الناس أبو بكر رضى الله عنه ففعل وسر بذلك النبى ﷺ .

(ج) كان سيدنا رسول الله ﷺ يحدث الناس دائماً مذكراً إياهم بمنزلة أبي بكر عند الله وعند رسوله ﷺ وبلائه في الإسلام وجهاده بنفسه وأهله وماله في سبيل الله . . . إلخ

وبالرغم من هذه الإشارات المعبرة والمستلهمة من القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى في سورة التوبة :

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا

وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

وفي قوله عز وجل في سورة النور :

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

وقوله :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ (٥٤ التوبة)

كل هذه إشارات لو قرأها الصحابة الكرام من المهاجرين والأنصار لما كان هناك أدنى خلاف في مبايعة الصديق أبي بكر خليفة لسيدنا رسول الله ﷺ .

ولكنها رحمة الله سبحانه ورحمة سيدنا رسول الله ﷺ تظهر في ترك الفرصة في البيعة الصريحة للمسلمين يستعملون حقهم في اختيار خليفة لتطمئن قلوبهم ويزداد ولاؤهم لدولة الإسلام وحكومة الراشدين . وليقبلوا على خدمة دينهم ومجتمعهم وهم راضون آمنون .. سعداء بحقوقهم .. أسخياء في أداء واجباتهم .. فسبحان الله العزيز الحكيم ، وصلى الله وسلم وبارك على أشرف الخلق رحمة الله للعالمين سيدنا محمد النبى العربي الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

يقول أستاذنا عباس محمود العقاد في كتابه النفيس (فاطمة الزهراء والفاطميون) ص٣٨ :

« وكانت السيدة فاطمة الزهراء ترى حق عليّ في الخلافة ، أو ترى أن قرابة النبى أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء عليّ في الجهاد ، وعلمه المشهود به يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجري الأمر على غير هذا المجرى ، فاجتمعوا عندها ، واجتمعوا في غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أيبايعون أم يتخلفون ، ولم نطلع على رواية واحدة ذات سند يعوّل عليه ترمي أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعي في تأليب الناس

على نقض البيعة ، وبعد مساجلات بينهم وبين أبي بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصدها ، وانكشفت الدسيسة التي بيتها أبو سفيان . فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على عليّ ، ويتحفز للوقيعة فصدّه عليّ وعرض له بذكر الغشاشين والمخادعين ثم قال له :

(إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه) .. إنتهى كلام العقاد ..

وهكذا حسم الإمام عليّ كرّم الله وجهه الخلاف لصالح الدين ولصالح جماعة المسلمين .

وما كان لبنت أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ التي رباها على القرآن الكريم أن تخالف رأى زوجها الإمام عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه في أمر الخلافة . هذا الرأى الذي شكل سدّاً منيعاً حجب وراءه طوفان الفتنة المنتن والتي أراد البعض أن ينشيء لجتها .. ولا غرو فإن أمّة محمد ﷺ هى الأمة المعصومة ..

واقرأ معي حديث سيدنا رسول الله ﷺ الذي يقول فيه :

« لاتَجْتَمِعُ أُمَّتِى عَلَى ضَلَالٍ » ..

هذا ماكان من أمر الخلافة ورأى الزهراء فيها ..

أمـا المناظرة الخـالـدة أو الحـوار الخـالد بين كل من خليـفـة رسـول الله ﷺ أبي بكـر الصـديق فكان يتعلق بأرض فـدك وأرض خيبـر . فإننـا نـورده فيمـا يـلي :

قالت سيدتنا الزهـراء لسيدنا أبي بكـر خليفة سيدنا رسول الله ﷺ :

ـ أنتـم الآن تزعـمـون أن لا إرث لنـا : أفـحكم الجـاهليـة تبغـون ؟ ومن أحسن من الله حكمـاً لقـوم يوقنون .

أيهـا المسلمـة المهـاجـرة أأبتـز إرث أبي ؟ أفي الكتـاب أن تـرث أباك ولا أرث أبي ؟! لقـد جئت شيئـاً فـريا .. فدونكمـا مخطومة مرحولة تلقـاك يـوم حشـرك فنعـم الحكـم الله والزعيـم محـمد والموعد القيامة وعنـد السـاعة يخسـر المبطلون . ولكل نبـأ مستقر وسـوف تعلمون .

قـال لهـا سيدنا أبـو بكـر :

« إن رسـول الله ﷺ كـان يقـول : إنّـا معـشـر الأنبـيـاء لا نورث .. ما تركناه صـدقة وإنّي والله لا أغـيّـر شيئـاً من صدقة رسول الله عن حالهـا التي كان عليها » .

ردت عليـه الزهراء فقالت :

ـ لقـد دعى نبى الله زكريا ربّـه فقال فى سورة مريم :

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

وقوله عز وجل في سورة النمل :

وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ (النمل)

قال لها سيدنا أبو بكر :

« يا بنت رسول الله ! ! أنت عين الحجة ، ومنطق الرسالة لا يدلى بجوابك ، ولا أوقعك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بيني وبينك هو الذي أخبرني بما تفقّدت وأنبأني بما أخذت وتركت .. يا ابنة رسول الله ! ! والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهماً .. إن الأنبياء لا يورّثون » .. فقالت :

إن فدك قد وهبها لي رسول الله ﷺ .. فسألها :

ـ فمن يشهد بذلك ؟ فجاء عليّ بن أبي طالب فشهد .. وجاءت أم أيمن فشهدت أيضاً .. فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهد أن رسول الله ﷺ كان يقسمها . فقال أبو بكر :

ـ صدقت يا ابنة رسول الله وصدق عليّ ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف .. وذلك أن مالك لأبيك . كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي ، ويحمل منه في سبيل الله . فما تصنعين بها ؟ قالت :

ـ أصنع بها كما كان يصنع بها أبي ! قال : فلك على الله أن أصنع كما كان يصنع أبوك .. قالت :

ـ آلله لتفعلن ؟ قال :

ـ آلله لأفعلن .. قالت :

ـ اللهم اشهد .

وعادت بنت سيدنا رسول الله ﷺ إلى بيتها . وعند ذلك طلب سيدنا عمر بن الخطاب من الخليفة أن يذهبا إليها ليسترضياها فأتيا البيت يسألان الإمام علياً رضى الله عنه أن يستأذنها ليدخلا عليها فأدخلهما فولّت وجهها عنهما إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد السلام (!!!) فتكلم أبو بكر فقال :

« يا حبيبة رسول الله !! والله إن قرابة رسول الله أحب إليّ من قرابتي ، وإنك لأحب إليّ من عائشة ابنتي !! ولوددت يوم مات أبوك أنّي مت معه ولا أبقى بعده ، أفتريننى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ . إلا أنّي سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول : لا نورث .. ما تركناه فهو صدقة . فقالت : « أرأيتكما إن حدثتكما حديث عن رسول الله تعرفانه وتعملان به ؟ قالا : نعم . قالت : نشدتكما الله !! ألم تسمعا رسول الله يقول :

رسولُ اللهِ يقولُ : « رِضا فاطِمَةَ : مِنْ رِضائِي وَسُخْطُها : مِنْ سُخْطِي ؟ » .

قالا : نعم سمعناه من رسول الله . قالت : فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني ، وما رضيتماني ! ولئن لأشكونكما إليه .. فقال الخليفة الصديق :

« أنا عائذ بالله من سخطه ومن سخطك يافاطمة » .. ثم انتحب وبكى حتى كادت نفسه تزهق . ثم خرج فاجتمع إليه الناس فقال لهم :

« يبيت كل رجل منكم معانقاً حليلته مسروراً بأهله ، وتركتموني وما أنا فيه !! لا حاجة لي في بيعتكم . أقيلوني بيعتي » .

هذا ما ورد في الكتب من حوار دار بين خليفة سيدنا رسول الله ﷺ وهو الصديق أبو بكر رضى الله عنه وأرضاه وبين سيدة نساء العالمين . كما تزعم هذه الكتب .

وعندي أن هذا الجدل وهذا النقاش لا يصمد عُشْرُه أمام التمحيص النزيه ، الذي يقوم به العقل السليم العارف لشريعة الله الإسلام واستقبال صحابة سيدنا رسول الله وأهل بيته الكرام لها .

ونبدأ بسيدتنا الزهراء رضى الله عنها .. لنثبت تحررها تماماً من حب الدنيا ، وتخلصها تماماً من التعلق بها ،

وزهدها في المال ، وكل ذلك من حسن توجيه سيدنا رسول الله ﷺ لها ، وامتثالها لهذا التوجيه والعمل على مقتضاه :

(أ) كان من عادة سبدنا رسول الله ﷺ إذا عاد من سفر أن يصلي ركعتين بالمسجد ثم يأتي باب الزهراء رضى الله عنها ويقول : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ : أَهْلَ الْبَيْتِ . » ثم يأتي بيوت نساءه .

وذات يوم كان عائداً من السفر فدخل عليها ، وأطال عندها المكث فوجدها تتحلى ببعض الحلي من الفضة . وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها . وطال انتظار أصحابه ﷺ لطول مكثه مع ابنته ، ووجدوه قد خرج من عندها والغضب يكسو وجهه الشريف عليه الصلاة والسلام ، ولم يبرح الغضب وجهه حتى جلس على المنبر فأحست فاطمة رضى الله عنها أنه سيتكلم عن مفردات هذه الحلى يستنكر إقتناء فاطمة لها فنزعتها وهى كانت عبارة عن قرطين (حلق) وقلادة ، ومسكتين ، ونزعت الستر وبعثت بكل ذلك إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقالت لمن أرسلته :

قل له : تقرأ ابنتك عليك السلام وتقول لك :

قَدْ فَعَلَتْ ، فداها أَبُوها ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، لَيْسَتِ الدُّنْيا مِنْ مُحَمَّدٍ ، وَلا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ . وَلَوْ كانَتْ الدُّنْيا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْخَيْرِ جَناحَ بَعُوضَةٍ : ما سَقَى كافِرًا مِنْها شَرْبَةَ ماءٍ .

(ب) ماكان من أمر سيدنا رسول الله ﷺ وأمرها رضى الله عنها حين طلبت منه عليه الصلاة والسلام أن يمنحها خادماً تساعدها في خدمة البيت وهى المجهدة الضعيفة ، ولم يستحب لها ﷺ مع تأكده من أن الاجهاد والضعف اللذين تعاني منهما ، ومع حاجتها إلى هذه المعونة .

(ج) رضاها بشظف العيش في بيتها عن طيب خاطر وسعادة بما يرضى الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ .

وكانت في تقبلها لقضاء سيدنا رسول الله ﷺ في هذه الأحوال راضية بحكمه، صابرة على لأواء العيش ، حريصة على ما وعدها به من النعيم في الآخرة .

(د) عندما حضر سيدنا رسول الله ﷺ الموت أسر إليها أنها أول من يلحق به من أهل البيت فضحكت ، ضحكت سروراً بالموت .. لأنه سيجمعها مرة أخرى بأشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ لتنعم بما وعدها به من جنة النعيم .

نبئني بربك أيها القارىء الكريم : هل من هذا شأنها مع الدنيا ، وهل من تتمتع بهذه الرؤية المضيئة في الدين ، وهل من عزفت عن بضع قطع من الفضة يكون عندها هذا الحرص على قطعة من الأرض تبرأ منها سيدنا رسول الله ﷺ .

هل يقبل العقل أن يصدق حرصها على مال حرمه سيدنا رسول الله ﷺ بنص حديثه الشريف الذي واجهها به سيدنا أبو بكر الصديق مستشهداً بسيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا عليّ بن أبي طالب زوجها وسيدنا عبد الرحمن بن عوف وسيدتنا أم سلمة .. وكل هؤلاء أعدل الشهود ولا يقولون عن سيدنا رسول الله ﷺ إلا الحق . وبهذه المثابة يكون هذا الحديث حجة قاطعة ، وقاعدة شرعية ملزمة لكل الناس ومنهم سيدنا أبو بكر الصديق خليفة سيدنا رسول الله ﷺ ، فهى حكم من أحكامه عليه الصلاة والسلام وفيها وفي غيرها من أحكامه ﷺ . قال الله سبحانه وتعالى في سورة النساء الآية ٦٥ :

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

وقال في الآية ٨٠ من سورة النساء :

مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾

أو كانت أم أبيها رضى الله عنها لتذعن لحكم أبيها ﷺ في حياته وتهدره في مماته ؟ ! ! هذا هو المستحيل في حقها عليها رضوان الله ورحمته وبركاته .

لقد حصّن الله أهل البيت الكرام ، وحفظهم بحفظه وعلى رأسهم فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله ﷺ ، في قوله عز من قائل في سورة الأحزاب الآية (٣٣) :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٣٣)

معاذ الله ! ! أن تطلب فاطمة بنت سيدنا رسول الله ﷺ مالاً بغير حق ! ! إنها أسمى وأجل وأعلى من ذلك بكثير فهى أحق بكلمة التقوى وأهلها .

بالنسبة للصديق رضى الله عنه :

إنه صاحب سيدنا رسول الله ﷺ وحبيبه الذي يشهد له خير الشاهدين رب العزة سبحانه وتعالى بأنه « الأتقى » وأنه « ثانى اثنين » ، وشهد له أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ فقال :

* « لَقَدْ صَدَّقَنِي ، بَعْدَ أَنْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ! .
وَآوانِي بَعْدَ أَنْ طَرَدَنِي النَّاسُ !. وواسانِي بِنَفْسِهِ وَمالِهِ .. »

* « لَوِ اتَّخَذْتُ - مِنَ الأَنامِ خَلِيلًا :
لَاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ : خَلِيلًا . »

هل يقبل العقل أن صاحب هذه المكانة يرى حقاً لبنت رسول الله ﷺ ويمنعها عنه ، أو يمنعه عنها ؟!

هذا مستحيل في حقّ الصِّدِّيق رضى الله عنه وأرضاه !..

ونخلُص من كلّ هذا إلى أن الحوار بين صديق النبى رضى الله عنه وبين سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء لم يستغرق أكثر من دقائق قليلة ، فى كلمات قليلة ، ظهر فيها وجه الحقّ ؛ فامتثل الجميع لقضاء الله - سبحانه وتعالى - فى سورة الأحزاب ، وقضاء سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث قال الحقُّ عزّ وجلّ :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

كلمات قليلة في دقائق قليلة انطوت على تسليم قُطبى الصلاح والتقوى بحكم الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - .

انصرفت بعده الزهراء إلى مزاولة حياتها التى تعوّدت

عليهـا ، تقضيها فى طاعـة الله سبحانه وتعالى ، وطاعـة سيدنا رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم : رُكوعـاً وسُجوداً ، وخـدمـة لـبـيـت الإمــام عـلىّ ـ رضى الله عنـــه ، وكـرّم الله وجــهـه ـ الذى يُظلل ذُرِّيـة سـيـدنـا رسـول الله صـلى الله عـلـيـه وسـلم وأهـل بـيـتـه الكرام : الـحـسن والـحسين وزينب وأم كلثـوم . هـؤلاء مـصـابيـح الهـدى وأعـلام التُّـقى ، مَنْ حَـفـظ الله بهـم الدين والقرآن الذكـر الـحكيم ، رضى الله عنهـم أجمعـين .

وفاتهـا : رضى الله عنهـا وأرضاها

ليـلة الثلاثاء لثـلاث خلَوْن من شـهـر رمضان المعظـم سـنة إحدى عـشـرة للهجـرة هـو يـوم زفافهـا إلى الرفـيق الأعلى من الجنـة ، تُشـرق على جـبـهـتـهـا أنـوار الله الـملك الـحـق الـمُبـين ، وتنبـعث منهـا رائحـة سـيـدنـا رسـول الله الصـادق الوعـد الأمين عليه وعليها وعلى أهـل بيتـه أفضـل الصلوات وأتـم التسليـم .

آه لقـد تحقّق وعـدُ أبيهـا ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أسـرَّ لهـا بـه عند صعوده إلى الرفيق الأعـلى من الجنـة :

« أَنْتِ : أَوَّلُ مَـنْ يَـلْـحَـقُ بِـى ، مِـنْ أَهْـلِ بَـيْـتِى .. »

وقـد جـاءت روايـات تســجـل هـذا الـحـدث الجـلل ، نذكـر بعضها :

١ - في كـتـاب (فـاطـمـة الزهـراء والفـاطـمـيـون) للأستاذ عباس محمود العقاد - ص٤٥ :

« وحضرها الموت .. وخذلتها جوارحها ، وعزيمتها في مواجهة الموت حاضرة لا تخذُلها . فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها ، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس ، بعد أن اغتسلت كأحسن ماكانت تغتسل :

(يا أَمَةُ ، إئْتِينِي بِثيابِي الْجُدُدِ .)

فلبستها ، ثُمَّ قالَتْ : (قَدِ اغْتَسَلْتُ ،

فَلا يَكْشِفَنَّ لِي أَحَدٌ كَنَفًا - يَعْنِي : سِتْرًا -) .

وَقالَتْ لِصاحِبَتِها : (أَتَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُوارِينِي بِشَيْءٍ ؟)

قالت : « إنّى رأيت الحبشةَ يعملون السريرَ للمرأةِ ، ويشُدُّون النعش بقوائم السرير » .

فعُمِل لَها النعش قبل وفاتها ، ونظرت إليه وقالت :

(سَتَرْتُمُونِي : سَتَرَكُمُ اللهُ ! .)

وتبسمت ، ولم تُرَ مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتها » .

هذا ماجاء في كتاب الأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - عن وفاة سيدتنا الزهراء ..

٢ - في كتاب (إنها فاطمة الزهراء) للدكتور محمد عبده يماني (المنار للنشر والتوزيع - دمشق ص ٢٢٣) .

(وتوفيت وهي بنت تسع وعشرين سنة . وقيل : كانت قبل وفاتها مسرورة ، لعلمها باللحاق بأبيها الذي بشّرها أن تكون أول أهل بيته لُحوقاً به !.

وكانت وصيتُها : أن تدفن ليلاً بالبقيع) .. انتهى .

إنها كانت تفضل الهدوء . لأنه أب للسكينة والوقار ، والخشوع لله رب العالمين . لذلك فهي اختارت الليل ظرف زمان لدفنها ، لأن الليل مُزَيَّن بالهدوء والسكينة : إشفاقاً على مُشيّعي جنازتها ومُشيّعاتها من النساء ، وخوفاً عليهم من الإزعاج !..

وهذا شيء لا يُستغرب من معدنها ؛ فإن معدنها هو رحمة الله للعالمين ، أشرف الخلق : سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلّم ! ..

وهكذا رحلت « أُمُّ أبيها : فاطمة الزهراء » ، وريحانته عن دنيا الناس ، وانتقلت إلى الرفيق الأعلى راضية مرضية ، هادية مهدية ، بعدما ناداها ربّ العالمين نفس النداء الذي نادى به أمَّها العظيمة ، في آخر سورة الفجر :

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

رحلت الزهراء إلى ربّها ، ولم تترُك ما يورث عنها من درهم أو دينار !. لكنها تركت تُراثاً وميراثاً عظيماً من كنوز مكارم الأخلاق ، وسنيِّ الخصال ، وكريم الفعال ، كان كافياً لتقوم عليه دولة صنعت حضارة أساسها الدين، علا ذكرها ، وطبْقت شهرتها الخافقين عندما نُسبت إليها ، حيث أن المؤسسين لها هم من أولادها وذريتها : ألا وهى الدولة الفاطمية التى سُميت باسمها ، فنعمت ببركتها !.. وكان من حُسن طالع مصر الحبيبة ، وحظها السعيد ، أن كانت عاصمة لمُلك الفاطميين الذين كان المعز لدين الله الفاطمي طليعتهم ؛ فبنى فيها القاهرة ، وشيّد فيها الجامع الأزهر : قلعة الإسلام وحِصنه الحصين !.. هذا الصّرح المكين الذي حفظ القرآن والسُّنة وعلوم الدين والذي أصبح أوّل جامعة فى التاريخ ، يؤُمُّه طُلاب العلم وعُشّاق الحكمة ، وأصحاب المعرفة من شرق العالم وغربه يدرسون العلوم ، ويفتحون زهور الحكمة في كل زمان ، ويُطعمون الناس ثمرات العلم فى كلّ مكان !..

وإذا كان الصحابيُّ الجليل عمرو بن العاص قد جاء مصر بالإسلام ، فإن المعزَ لدين الله قد بنى فيها حصن الإسلام المكين الذي وجد القرآن فيه أمانَهُ ، والسُّنة النبوية سلامتها ، هما معاً : رونقهما وطلاوتهما ؛ فلم تصل

إليهما يدُ باطش جبَّار ، ولا مفتون أفّاك ، وصدق الله العظيم في قوله الكريم ، في قرآنه العظيم ، وكلامه القويم :
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٩ الحجر)

نحمد الله سبحانه وتعالى أن جعل الأزهر الشريف فى مصر : نفحةً من نفحات الزهراء ، وبركةً من بركاتها .. فيه تُقام الصلاة ، ويُتلى القرآن الكريم ، وتقوم لعلوم الدين دولة أساسها التقوى ، وأعمدتها مكارم الأخلاق ، وزينتها العلم ، وباطنُها الحكمة ، وثمرتها حضارة ذات قِيَم ومبادئ يسعد بها الإنسان ، ويطمئن بها الوجدان ، وتستضيء بها مسيرته عَبْرَ الزمان وعَبْر المكان ، ورايتُها مكتوبٌ عليها بحروف النور :

« لَا إِلٰـهَ إِلَّا اللهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ » ..

ويُحيط بالجامع الأزهر مساجد الإمام الحسين بن عليّ ، والسيدة الطاهرة زينب : أخته ، والسيدة سُكينة : ابنته ، والسيدة عائشة ، ونفيسة العلم ..

وكلُّهم ذُريّة فاطمة

الزهراء : سيدة نساء العالمين

وهذه المساجد عامرة بالذِّكر الحكيم والصلاة والعلوم الشريفة ، يصُبُّ فيها الأزهر ما يفيض منه من علم وحكمة .

وذلك فضلُ اللهِ على مصر ، والله ذو الفضل العظيم !.
ولا ننسى مواكب العلم الذين يتوافدون على هذا الأزهر من جميع أنحاء العالم ، وهم ظامئون إلى العلم - فيرتوون بسلسبيله ، وينعمون بغذاء الرُّوح ، ويعودون إلى بلادهم يعلِّمون الناس - من علم الكتاب - ما هُمْ في حاجة إليه من العلم النافع ، ويُرددون جميعاً كلماتِ الله - عزّ وجلّ - :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(آل عمران)

أراد الله - سبحانه وتعالى ، وله الحمد كلُّ الحمد ، والشكر كلّ الشُّكر - أن تحظى مصر بهذه النعمة الكبرى ،

وهي قيام الأزهر الشريف : منارة للعلم الشريف ، وحصناً للإسلام ، وقلعة تحفظ القرآن الكريم ، في كلَ العصور ، وفي كل العهود ، أبد الدهر ، لا تُرفع على مآذنه إلا رايةُ الإسلام ، ولا يرتفع الصوت على مآذنه إلا بالأذان ، ليعُمَّ نورُه جميع الآفاق في شرق الدنيا وغربها ، والمؤذن يوقظ النائمين ، ويُنبِّه الغافلين، ويجمع التائبين ، ويُنادي الصالحين ، وهو يترنَّم بكلمات الأذان النورانية :

الله أكبر .. الله أكبر

الله أكبر .. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله .. أشهد أن محمداً رسول الله

حيَّ على الصلاة .. حيَّ على الصلاة

حيَّ على الفلاح .. حيَّ على الفلاح

اللهُ أكبر .. اللهُ أكبر

لا إله إلا الله

وتتربّع مِصر على المكانة العليا ، والقمّة السامقَة .. وهذا من بركة سيدنا رسول الله - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم - وبرَكة سيِّدتنا الزهراء .. سلامٌ على سيدتنا فاطمةَ الزهراء في العالمين ..

﴿ كَلِمَةٌ خِتامِيَّةٌ ﴾

إلى مجتمع المسلمين في كلّ مشارق الأرض ومغاربها .. جاءت أحاديث شريفة ، في كتاب (الشفا) بتعريف حقوق سيدنا المصطفى ، لأبي الفضل القاضي عياض ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ يقول فيها سيدنا رسول الله ، صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم :

١ - إِنِّى تارِكٌ فِيكُمْ ما إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا :
كِتابَ اللهِ ، وَعِتْرَتِى : أَهْلَ بَيْتِى ..
فانْظُرُوا : كَيْفَ تَخْلُفُونى فِيهِما ؟ ! »

٢ - وَقالَ ﷺ : « مَعْرِفَةُ آلِ مُحَمَّدٍ : بَراءَةٌ مِنَ النَّارِ ..
وَحُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ : جَوازٌ عَلَى الصِّراطِ ..
والْوِلايَةُ لآلِ مُحَمَّدٍ : أَمانٌ مِنَ الْعَذابِ . »

* وقالَ بَعْضُ الْعُلَماءِ :

٣ ـ وعن عمر بن أبى سلمة : لمّا نزلت

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأحزاب)

وذلك فى بيت أم سلمة ، دعا فاطمة وحسناً

وحسيناً فجللهم بكساء ، وعليٌّ خلف ظهره ، ثم قال :

« اَللّٰهُمَّ ، هٰؤُلاءِ : أَهْلُ بَيْتِي ؛

فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ ، وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا . »

٤ – وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – (لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْمُباهَلَةِ ، دعا النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا وَفاطِمَةَ ، وَقالَ : « اَللّٰهُمَّ ، هٰؤُلاءِ : أَهْلِي » .)

وآية المباهلة في سورة آل عمران رقم ٦١ :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

يأمرنا سيدُنا رسول الله ـ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم ـ بحبّ أهْل بيته الكرام : في هذا الحديث الذي رواه الترمذيُّ وحسّنه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم ـ :

« أَحِبُّوا اللهَ : لِما يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ . .

وَأَحِبُّونِي : بِحُبِّ اللهِ . . وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي : بِحُبِّي . »

(الترمذي)

إنّما هو الحبُّ في الله . .

هـذا الحبُّ لـه دستور في كتاب الله تعالى ، وفي السُّنة المُطهّرة : من حديث شريف وأعمال وتقريرات . وهذا الدستور له قواعده المحكمة التي تنظم سُلوك المحبّين ، بعد أن استقام عليها سُلوك المحبوبين رضوانُ الله عليهم .

فهو حب يلد مسئولية عُظمى في عُنق المحب .

ويكفي في ذلك أن نذكر فرعاً من هذه المسئولية يُعانى فيه المحب لأهل البيت مُعاناة شديدة من جهاد النفس ، لأنه سيختار طريق الجهاد الأكبر ،،وهو جهاد النفس ، لأنه سيقتدي بهم ، ويترسّم خُطاهم ، ويضبط سلوكه في الحياة وَفق ما فى الإسلام الحنيف من قواعد وأحكام شرعيّة ، لأنهم رضى الله عنهم فعلوا ذلك وأكثر من ذلك !.

وإنّي لا أبُالغ عندما أقول إنهم فعلوا أكثر من ذلك ، فإنّي أذكّر القُرّاء الكرام بما كان من سيدتنا الزهراء صاحبة السيرة ، عندما أدركت أن ما اقتنتْه من بعض الحُلىَ من الفضة أغضب سيدَنا رسول الله ﷺ حرّرت نفسها منها وهى الحلال ، وطلبت من والدها ﷺ أن يبيعها ويجعلها في سبيل الله ، وما كان من زوجها سيدنا الإمام عليّ من جهاد في سبيل الله ومن زُهد في الدنيا ، وما كان من القمريْن النيّرين والسِّبْطين الكريمين : سيّدنا ومولانا الحسن

وسيِّدنا ومولانا الحسين ـ عليهما السلام ـ وما كان من سيدة النساء والرِّجال عالية المقام السيدة زينب ـ عليها السلام ـ من صبر على البلاء الذى يضعُف أمامه كثير من الرجال !..

كلُّ هذا يدفع الرجال والنساء والشباب والفتيان والصبيان إلى اتخاذهم المثل الأعلى والقُدوة الحَسنة ، ويجعل المُحبِّين لأهل البيت يُقبلون على نهر محبتهم يشربون من الكأس بعد الكأس ، شراب حبهم ليسري في دمهم سريان الروح فى الجسد . فينعمون منه بالروح والريحان ، وتملأ قلوبَهم السكينة ، وتسطع على جوارحهم أنوار هذا الحب أعمالاً صالحة تُثري الحياة في مجتمعهم من الإحسان إلى اليتيم ، وإكرام الأرامل ، وإطعام المساكين ، والبر بالضعفاء ، والإصلاح بين الناس ، وإفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، وصلة الأرحام ، والصلاة بالليل والناس نيام ، فتصفو القلوب وتتعانق الأرواح ، وترتفع الأصوات بذكر الله ، وتعطر المجالس بتلاوة القرآن ، وتزهو بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ ويمتلئ الوجدان بالسلام ، ويعيش الناس آمنين مطمئنين على أنفسهم وعلى أعراضهم وعلى أموالهم ، فهُمْ في مسيرتهم موكب من مواكب الحب في الله !..

فالمسلم المُحبُّ لأهل البيت الكرام لا يرى الناس منه ، إلا ما يسرهم ويطمئنهم ، وينشر على الأرض نفحات السلام !.

إنهـم أحـبـاب أهـل البـيت الكـرام ، فـهُـمْ يواصلون مسيرتهم إلى الله عز وجل ، وملء أسماعهم ، وملء أفئدتهم قـول الله عـز وجـل في الآيـة رقـم (٣١) من سـورة آل عمـران :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾

ثـم هـم يسـمعون الله ـ سـبحانه وتـعـالى ـ يقـول في سورة فُصِّلت ، في الآيات من ٣٠ إلى ٣٥ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

هـذا الـزمـانِ - وَافـول لـهـا :

وَإنـنـا - فِى حُـبِّـهِـمْ - نَسـيـرُ وراءَ صحـابَـةِ سـيدِنـا رَسُـولِ اللهَ ﷺ يَـتَـقَـدَّمُـهُـمُ المُـحِـبُّ الأول لأهْـلِ الْـبَـيْـتِ سَـيِّدُنـا أَبُـوبَـكْـرٍ الصِّـدِّيـقُ الَّـذِى قـال :

« أُرْقُـبُـوا مُـحَـمَّـدًا - ﷺ - فِى أَهْـلِ بَـيْـتِـهِ . »

وَقـالَ : « وَالَّـذِى نَـفْسِى فِى يَـدِهِ ،

لَـقَـرابَـةُ رَسُـولِ اللهِ - ﷺ - : أَحَـبُّ إلَىَّ مِنْ قَـرابَـتِى ! .. »

ورآهُ صـحابِىٌّ كـريـمٌ ، وقـدْ جـعـل سـيِّـدَنـا الحسنَ أبْـنَ عَلِىٍّ - رَضِىَ اللهُ عَـنْـهُما - عـلَى عُـنُـقِـه ، وهـويـقـول :

« بِـأَبِى : شَـبِـيـهٌ بِـالـنَّـبِىِّ : لَـيْسَ شَـبِـيـهًـا بِـعَـلِىٍّ ! .. »

والإمامُ عـلِىٌّ يَـراهُـمـا ، وَيَـضْـحَـكُ ! ..

عليك يا أختي ، بالاقتـداء بسيدتنا الزهـراء - رضى الله عنهـا ، لتنعـمي بصـفـة من صفـاتهـا تتحلّين بهـا ، فـتـملئين دُنياك خيراً ، وآخـرتك سعادة .. ولا تغترى فيمـا يـردُ إليـنـا مـن الـغـرب ، مـن فـكـر فيـه من الضـلال أكـثر ممّا فيـه من الهدى ، وفيـه من الشـقاء الأبدي : ما يطغى على السعادة الخاطفـة ، وفيـه من العـذاب البـاطن : أكـثر مما فيـه مـن السـرور الظـاهـر . فـوالله الذي لا إلـه إلا هـو : لا خيـر في طـريق لنسـاء العالـمين : إلا في طـريق سيدة نسـاء العـالمين !.

أَيَّتُها الأُخْتُ الْمُسْلِمَةُ !
إنّ الَّذِى قدّم لكِ الزَّهْراءَ - قُدْوَةً طيِّبةً ،
وأُسْوَةً حسنةً
هو أشرفُ الخَلْقِ : سيِّدُنا مُحَمَّدٌ
- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
عِنْدَما سَمَّاها : « سَيِّدَةَ نِساءِ الْعالَمِينَ » ..

وبِاللهِ التوْفِيقُ ، وَعَلَيْهِ التُّكْلانُ ..

« اَللَّهُمَّ : صَلِّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ: عَدَدَ مَعْلُوماتِكَ ، وَمِدادَ كَلِماتِكَ : كُلَّما ذَكَرَكَ الذَّاكِرُونَ ، وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغافِلُونَ » .

سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ (الصافات)

فرغت من كتابة هذا البحث في مساء يوم الجمعة ..
٢٢ من شهر ذي الحجّة سنة ١٤٢٣ هـ
الموافق ٢١ من شهر فبراير سنة ٢٠٠٣ م

عبد البديع عبد السميع كفافي
٧ شارع حسن فريد - الزهراء - مصر القديمة - القاهرة ..

الفهرس

رقم الإيداع : ٥٢٤٣ / ٢٠٠٣

